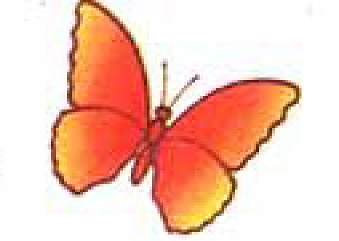




أوليفر تويست

كتب الفراشة - القِصص العالميّة

أوليڤَر تويسْت



أعادَ حِكايَتها : الدّكتور ألبير مُطْلَق
عَن قصّة تشارْلز ديكِنز



مَكتبَة لبْنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل.
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤
رقم الكتاب 01 C 196802
طبع في لبنان



مقدّمة

ظَهَرَتْ رِوايَةُ «**أُولِڤَر تْوِسْت**» عامَ ١٨٣٧، وتَبَوَّأَتْ مَرْكَزًا هامًّا بَيْنَ أَشْهَرِ المُؤَلَّفاتِ العالَمِيَّةِ. وقَدْ نُقِلَتْ عِدَّةَ مَرّاتٍ إلى السّينما والمَسْرَحِ، فَما إنْ يَسْمَعُ الأَطْفالُ – في مُعْظَمِ أَنْحاءِ العالَمِ – بِاسْمِ تْشارِلْز دِكِنْز حَتّى تَخْطُرَ بِبالِهِمْ صورَةُ أُولِڤَر ذاكَ الصَّبِيِّ الجائِعِ وهو يَطْلُبُ المَزيدَ مِنَ الحَساءِ.

كانَ دِكِنْز سَنَةَ ١٨٣٧ في الخامِسَةِ والعِشْرينَ، ولَمْ تَكُنْ صورَةُ طُفولَتِهِ البائِسَةِ قَدْ فارَقَتْ ذاكِرَتَهُ، إذْ كانَ ابْنَ عائِلَةٍ مُتَوَسِّطَةِ الحالِ نَزَلَتْ بِها ظُروفُ الحَياةِ إلى حالَةِ الفَقْرِ وَسْطَ التَّحَوُّلاتِ الاجْتِماعِيَّةِ المُثيرَةِ الّتي شَهِدَتْها إنكِلْترا إبّانَ فَوْرَةِ الثَّوْرَةِ الصِّناعِيَّةِ. تَمَكَّنَ دِكِنْز، خِلالَ عَمَلِهِ كَمُراسِلٍ صَحَفِيٍّ، مِنَ التَّجَوُّلِ في أَنْحاءِ إنكِلْترا ومُلاحَظَةِ مَظاهِرِ البُؤْسِ الذي رَزَحَ تَحْتَهُ النّاسُ. وقَدْ صَوَّرَ جانِبًا مِنْ مَآسيهِمْ في رِوايَةِ «**أُولِڤَر تْوِسْت**».

مَعَ انْتِشارِ المَصانِعِ في أَرْجاءِ إنكِلْترا آنَذاكَ، تَدَفَّقَ العُمّالُ مِنَ الأَرْيافِ إلى المُدُنِ سَعْيًا لِلعَمَلِ. ومَنْ لَمْ يُوَفَّقْ في إيجادِ عَمَلٍ كانَ يُضْطَرُّ لِلذَّهابِ إلى المَلاجِئِ الّتي أُقيمَتْ خِصّيصًا لِإيواءِ المُعْوِزينَ. كانَ العَيْشُ في هٰذِهِ المَلاجِئِ صَعْبًا لِلغايَةِ، إذْ كانَ يُفْصَلُ بَيْنَ الرَّجُلِ وزَوْجَتِهِ، وكانَ النُّزَلاءُ يُعامَلونَ بِفَظاظَةٍ ويَنالونَ أَرْدَأَ الطَّعامِ وأَقَلَّهُ. أَمّا مُديرو تِلْكَ المَلاجِئِ فكانوا، غالِبًا، بِلا رَحْمَةٍ ولا شَفَقَةٍ كَالسَّيِّدِ بَمْبِل والسَّيِّدَةِ مان في هٰذِهِ الرِّوايَةِ.

كانَ مِنْ شأْنِ هٰذِهِ الظُّروفِ الصَّعْبَةِ في المَلاجِئِ أَنْ دَفَعَتِ الكَثيرينَ إلى الابْتِعادِ عَنْها بِالرَّغمِ مِنْ بَطالَتِهِمْ، فَتَفَشَّى الشَّرُّ والإِجْرامُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ أَمْثالِ فاغن وبل سايكْس. فَقَدْ جَرَّ هٰؤُلاءِ الأَشْرارُ العَديدَ مِنَ الأَبْرِياءِ الضُّعَفاءِ لِلمُشارَكَةِ في أَعْمالِهِمِ الإِجْرامِيَّةِ مُسْتَغِلّينَ حاجَتَهُمُ المُلِحَّةَ، كَما فَعَلوا مَعَ نانْسي وأُولِفَر.

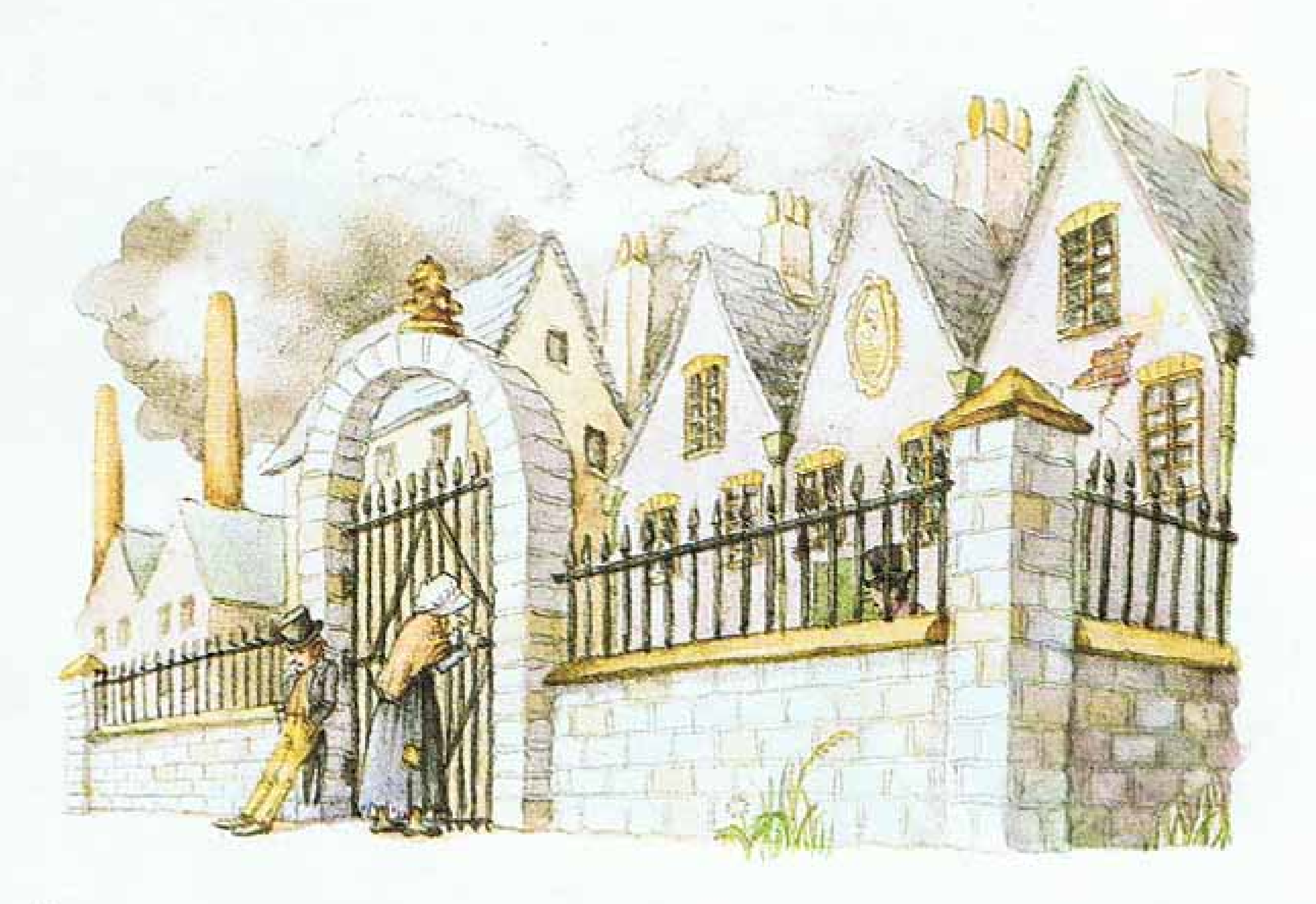
بَرَعَ دِكِنْز في رِوايَةِ «**أُولِفَر تْوِسْت**» في تَصْويرِ حَياةِ هٰؤُلاءِ المُجْرِمينَ والمُحيطِ الذي يَعيشونَ فيهِ. وتُوضِحُ الرِّوايَةُ أَنَّ بَعْضَ هٰؤُلاءِ الأَشْقِياءِ - كَالفَتى أُولِفَر- لَمْ يَخْتاروا مُخالَفَةَ القانونِ طَوْعًا، وإِنَّما انْجَرّوا إلى ذٰلِكَ لِعَدَمِ وُجودِ أَيِّ فُرْصَةٍ أُخْرى لِلعَمَلِ والعَيْشِ بِكَرامَةٍ.

ولَمْ يَغِبْ عَنْ بالِ دِكِنْز إِبْرازُ الجانِبِ الطَّيِّبِ عِنْدَ النَّاسِ. فَالسَّيِّدُ بْراونْلو وروز مايْلي يَتَحَلَّيانِ بِاللُّطْفِ والكَرَمِ، وهُما مِنَ الأَثْرِياءِ الَّذينَ لا يُحْجِمونَ عَنْ تَقْديمِ العَوْنِ لِمَنْ يَحْتاجُ. وهٰذا ما يَجْعَلُ الخَيْرَ مُنْتَصِرًا في نِهايَةِ الأَمْرِ.

رِوايَةُ «**أُولِفَر تْوِسْت**» أَثَرٌ أَدَبِيٌّ رَفيعٌ لِأَنَّها لا تَكْتَفي بِتَجْسيدِ الصِّراعِ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ والانْتِهاءِ بِخاتِمَةٍ سَعيدَةٍ، بَلْ تَذْهَبُ إلى ما هو أَعْمَقُ؛ فَتُصَوِّرُ بِشَكْلٍ مُؤَثِّرٍ نِهايَةَ فاغن وتوحي بِأَنَّ هٰذا العَجوزَ المُجْرِمَ، بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ أَعْمالِهِ، فيهِ بَعْضُ المَزايا اللّافِتَةِ. وقَدْ أَثْبَتَ دِكِنْز بِذٰلِكَ أَنَّهُ، في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ، يَصْعُبُ رَسْمُ خَطٍّ واضِحٍ يَفْصِلُ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ.



أوليڤـر تويسْت



وُلِدَ أوليڤر تويسْت في حوالى العام ١٨٢٠ في بَلْدَةٍ واقِعَةٍ شمالِيَّ مَدينَةِ لَنْدَن. وكانَتْ أُمُّهُ قَدْ نُقِلَتْ إلى مَلْجأٍ في تِلْكَ البَلْدَةِ بَعْدَ أَنْ عُثِرَ عَلَيْها في أَحَدِ الشَّوارِعِ غائِبَةً عَنِ الوَعْيِ. ورُغْمَ ما بَدا عَلَيْها مِنْ عَلاماتِ الحِرْمانِ والقَهْرِ، ورُغْمَ هَيْئَتِها الَّتي أَضْناها القَلَقُ والخَوْفُ، فقَدْ كانَ جَلِيًّا لِكُلِّ مَنْ نَظَرَ إِلَيْها أَنَّ وَراءَ سَحابَةِ الأَحْزانِ والحِرْمانِ صَبِيَّةً فاتِنَةً نَبيلَةَ المَحْتِدِ. لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مَنْ كانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ ولا مِنْ أَيْنَ أَتَتْ. فإِنَّها بَعْدَ أَنْ وَضَعَتْ طِفْلَها، في ذٰلِكَ المَلْجأِ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةَ رِضًى واطْمِئْنانٍ وأَسْلَمَتِ الرّوحَ. أَمّا الطِّفْلُ الوَليدُ فكانَ مِنَ الضَّعْفِ والهُزالِ بِحَيْثُ ظَنَّ النّاسُ أَنَّهُ لَنْ يَعيشَ طَويلًا.

وأُعْطِيَ الطِّفْلُ اليَتيمُ اسْمَ أوليڤر. ثُمَّ نُقِلَ بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ إلى مَيْتَمٍ فَرْعِيٍّ يَبْعُدُ بِضْعَةَ كيلومِتْراتٍ عَنِ المَلْجأِ، حَيْثُ كانَ يَعيشُ ثَلاثون طِفْلًا يَتيمًا آخَرَ. ورُغْمَ ما كانَ أوليڤر يُعانيهِ في ذٰلِكَ المَيْتَمِ مِنْ جوعٍ وإِهْمالٍ، فقَدْ تَمَكَّنَ مِنَ البَقاءِ حَيًّا، وعاشَ هُناكَ، في ظِلِّ تِلْكَ الظُّروفِ التَّعيسَةِ، سَنَواتِهِ التِّسْعَ الأولى.

أَمْضى أُولِفَر عيدَ ميلادِهِ التّاسِعَ مُحْتَجَزًا في قَبْوٍ ، هُوَ واثْنانِ مِنْ رِفاقِهِ ، لِتَجَرُّؤِهِمْ على القَوْلِ إِنَّهُمْ جائعونَ . وقَدْ ضَرَبَتْهُمْ مُرَبِّيَتُهُم ، السَّيِّدَةُ مان ، قَبْلَ إِلْقائِهِمْ في القَبْوِ ، ضَرْبًا مُبَرِّحًا . وفي ذٰلِكَ اليَوْمِ نَفْسِهِ وَصَلَ إلى المَيْتَمِ مَسْؤولٌ مِنَ المَلْجَإِ الرَّئيسِيِّ لِمُقابَلَةِ السَّيِّدَةِ مان . كانَ ذٰلِكَ المَسْؤولُ ، واسْمُهُ السَّيِّدُ بَمْبِل ، رَجُلاً سَمينًا مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ ، يَحْسَبُ أَنَّهُ أَرْفَعُ النّاسِ مَقامًا في هٰذا العالَمِ .

رَأى مُديرو المَلْجَإِ أَنَّ أُولِفَر ، وقَدْ أَصْبَحَ في التّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ ، لا يَجوزُ أَنْ يَبْقى في المَيْتَمِ وأَنْ يُعامَلَ كَما يُعامَلُ الأَطْفالُ . لِذا أَمَروا بِنَقْلِهِ إلى المَلْجَإِ الرَّئيسِيِّ لِيَكونَ مَعَ فِتْيانٍ مِنْ سِنِّهِ .

نَفَخَ السَّيِّدُ بَمْبِل صَدْرَهُ وقال بِجَلالٍ وعَظَمَةٍ : «أَتَأْتي مَعي ، يا أُولِفَر؟»

أَجابَ أُولِفَر بِصَوْتٍ مُرْتَعِشٍ ، وكُلُّ هَمِّهِ الخَلاصُ مِنَ السَّيِّدَةِ مان ، قائلاً : «وهَلْ تَأْتي السَّيِّدَةُ مَعَنا؟»

أَجابَ السَّيِّدُ بَمْبِل : «لا ، لٰكِنَّها سَتَزورُكَ بَيْنَ وَقْتٍ وآخَرَ .»

وأَبْدَتِ السَّيِّدَةُ مان اهْتِمامًا شَديدًا في مُساعَدَةِ أُولِفَر على إِعْدادِ نَفْسِهِ لِلرِّحْلَةِ ، بَلْ إِنَّها أَعْطَتْهُ قِطْعَةً مِنَ الخُبْزِ بِالزُّبْدَةِ لِئَلاَّ تَظْهَرَ عَلَيْهِ آثارُ الجوعِ المُزْمِنِ . واقْتيدَ أُولِفَر بَعْدَ ذٰلِكَ إلى الزّائِرِ التَّيّاهِ المَغْرورِ ، سَعيدًا بِخَلاصِهِ مِنْ ذٰلِكَ المَكانِ البائِسِ التَّعيسِ الَّذي قَضى فيهِ سَنَواتِهِ التِّسْعَ الأُولى دونَ أَنْ يَلْتَفِتَ إليه أَحَدٌ طَوالَ تِلْكَ الفَتْرةِ أَوْ يُواسِيَهُ مَرَّةً بِكَلِمَةٍ حُلْوَةٍ .

كانَتْ حَياةُ المَلْجَإِ شاقَّةً . يُطْلَبُ فيها إلى الأَوْلادِ أَنْ يَقوموا بِأَعْمالٍ مُضْجِرَةٍ . ولا يَتَناوَلونَ مِنَ الطَّعامِ إِلاّ الحَساءَ ، يَتَناوَلونَهُ صَباحًا وظُهْرًا ومَساءً . إِلاّ في أَيّامِ الأَعْيادِ فإِنَّهُ يُضافُ إلى طَعامِهِمْ بَصَلَةٌ وكِسْرَةُ خُبْزٍ . وكانَ الحَساءُ اليَوْمِيُّ يُقَدَّمُ لِلأَوْلادِ مِنْ دَسْتٍ ضَخْمٍ مُرَكَّزٍ في آخِرِ قاعَةِ الطَّعامِ .

فلَمْ يَكُنْ مِنَ العَجَبِ إِذًا ، مَعَ تِلْكَ الحِمْيَةِ القاسِيَةِ ، أَنْ يُلازِمَ الجوعُ أُولٰئِكَ الأَوْلادَ التُّعَساءَ الَّذينَ كانوا مِنَ اليَأْسِ بِحَيْثُ رَأَوْا أَلاّ مَناصَ مِنْ طَلَبِ شَيْءٍ آخَرَ يَأْكُلونَهُ مَعَ



الحَساءِ. وَقَرَّ رَأْيُهُمْ على اخْتِيارِ أُولِفَر لِتَقديمِ ذٰلِكَ الالْتِماسِ باسْمِهِمْ عِنْدَ تَقْديمِ وَجْبَةِ الطَّعامِ التّالِيَةِ.

ولَمْ يُفِدِ الطَّلَبُ الَّذي تَقَدَّمَ بِهِ أُولِفَر الأَوْلادَ في شَيْءٍ ، في حينَ أَنَّهُ تَسَبَّبَ في إنْزالِ عِقابٍ صارِمٍ بِالفَتى المِسْكينِ. فَقَدْ رَدَّ السَّيِّدُ بَمْبِل وسائرُ المَسْؤولينَ في المَلْجَإِ على ذٰلِكَ التَّصَرُّفِ رَدًّا سَريعًا ، وحَبَسوا أُولِفَر في غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ مَعْزولَةٍ لِمُدَّةِ أُسْبوعٍ. واتَّخَذوا قَرارًا بِطَرْدِ الفَتى المُشاغِبِ وإلْحاقِهِ بِعَمَلٍ خارِجَ المَلْجَإِ يُريحُهُمْ مِنْهُ. ثُمَّ إنَّهُمْ عَلَّقوا على بابِ المَلْجَإِ إعْلانًا وَعَدوا فيهِ بِمَنْحِ عَشْرِ جُنَيْهاتٍ لِمَنْ يَأْخُذُ أُولِفَر تْوِسْت مَعَهُ ويُعْطيهِ عَمَلًا.

جاءَ إلى المَلْجَإِ ، بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ ، حانوتيٌّ اسْمُهُ السَّيِّدُ سَوَرْبري. وكانَ رَجُلًا طَويلًا ، نَحيلًا بارِزَ العِظامِ ، يَلْبَسُ بِذْلَةً سَوْداءَ لا تُفارِقُهُ أَبَدًا. وكانَتْ مِهْنَتُهُ تَقْتَضي مِنْهُ أَنْ يَقيسَ أَجْسادَ المَوْتى التّاعِسينَ لِيَخْتارَ لَها التَّوابيتَ المُناسِبَةَ.



حينَ رأى السَّيِّدُ سَوَرْبري الوَرَقَةَ المُلْصَقَةَ على البابِ أَسْرَعَ إلى السَّيِّدِ بَمْبِل وقالَ لَهُ : «سآخُذُ الفتى. أَنا بِحاجَةٍ إلى مُساعِدٍ.»

وُقِّعَتِ الأَوْراقُ القانونيَّةُ لِخُروجِ الفَتى مِنَ المَلْجَإِ والْتِحاقِهِ بِمِهْنَتِهِ الإلْزاميَّةِ. وفي ذٰلِكَ المَساءِ قامَ السَّيِّدُ بَمْبِل بِاقْتِيادِ أُولِفَر إلى سَيِّدِهِ الجَديدِ.

في الطَّريقِ إلى بَيْتِ السَّيِّدِ سَوَرْبري تَعَلَّقَ أُولِفَر بِيَدِ السَّيِّدِ بَمْبِل ، ونَظَرَ مُتَوَسِّلًا في عَيْنَيْهِ ، وكأَنَّهُ يَرْجوهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُ. ولٰكِنَّ السَّيِّدَ بَمْبِل ظَلَّ على عُبوسِه وقَسْوَتِهِ ، وقالَ :

«أَنْتَ ، أَيُّها الفَتى الجاحِدُ..»

صَرَخَ أُولِفَر ، وقَدِ ازْداد تَعَلُّقًا بِيَدِ السَّيِّدِ بَمْبِل الَّذي فاجَأَهُ تَصَرُّفُ الفَتى :

«لا ، لا يا سَيِّدي ، سَأَكونُ فَتًى مُطيعًا. أنا لَسْتُ إلّا فَتًى صَغيرًا ، وسأُحِسُّ.. سأُحِسُّ بالـ..»

فسَأَلَ السَّيِّدُ بَمْبِل : «تُحِسُّ بِماذا؟»



صاحَ الفتى : «سأُحِسُّ بالوَحْدَةِ ، يا سيِّدي ! الوَحْدَةِ القاسيَةِ .» شَعَرَ أُولِڤَر بحُزْنٍ عَميقٍ حينَ تأكَّدَ لَهُ أَنَّهُ لَنْ يكونَ حَوْلَهُ أَوْلادٌ بَعْدَ اليَوْمِ ، وهْوَ الَّذي لَمْ يَعْرِفْ مَعْنى الصَّداقَةِ والمَحَبَّةِ إلّا مَعَهُمْ .

لكِنْ ، أَيْنَ المَفَرُّ؟ فلَقَدْ سُلِّمَ الفتى إلى السَّيِّدِ سوَرْبري وزَوْجَتِهِ القَصيرَةِ النَّحيلَةِ المُشاكِسَةِ . وسُرْعانَ ما تَحرَّكَتِ الزَّوْجَةُ ودفَعَتِ الفتى الحائرَ المَهْمومَ إلى الطّابقِ الأَرْضيِّ ، وأَدْخَلَتْهُ مَطْبَخًا مُعْتِمًا رَطْبًا ، وهْيَ تُزَمْجِرُ قائلَةً :

«تَحرَّكْ يا قُفَّةَ العِظامِ الصَّغيرَةَ .»

ودَفَعَتْ إلَيْهِ في المَطْبَخِ فَضَلاتٍ مِنَ اللَّحْمِ كانَتْ مَتْروكَةً طَعامًا للكَلْبِ . ثُمَّ أَعادَتْهُ إلى طابقٍ عُلْويٍّ وقادَتْهُ إلى سَريرٍ في زاويَةٍ قَذِرَةٍ مِنْ زَوايا حانوتِ زَوْجِها . ورَأَتْ أُولِڤَر يَتطَلَّعُ بِهَلَعٍ إلى التَّوابيتِ مِنْ حَوْلِهِ ، وقَدْ أَخَذَ ضَوْءُ الشَّمْعَةِ يَرْسُمُ أَشْباحًا ، فقالَتْ بِنَبْرَةٍ ساخِرَةٍ :

«لا أَحْسَبُكَ تُمانِعُ في النَّوْمِ بَيْنَ التَّوابيتِ .»

نامَ أُولِڤَر نَوْمًا مُتَقَطِّعًا في تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وكانَ يَسْتَيْقِظُ بَيْنَ حينٍ وحينٍ ويَنْظُرُ بِهَلَعٍ إلى التَّوابيتِ مِنْ حَوْلِهِ ، يَحْسَبُ أَنَّ شَبَحًا سَيَقْفِزُ مِنْ أَحَدِها ويأْتي إلَيْهِ . ولَمْ يَجِئْهُ الفَرَجُ إلّا مَعَ طُلوعِ الفَجْرِ .

أَجْفَلَ أُولِڤَر فَجْأَةً حينَ سَمِعَ صِياحًا في الشّارعِ ثُمَّ قَرْعًا عَنيفًا على بابِ الحانوتِ . قامَ إلى البابِ فَفَتَحَهُ . فانْدَفَعَ فَتًى ضَخْمٌ شَرِسُ الهَيْئَةِ إلى وَسَطِ القاعَةِ . سُرْعانَ ما أَفْهَمَ أُولِڤَر أَنَّهُ هُوَ ، نوح كلايْبوي ، المُساعِدُ الأَوَّلُ في الحانوتِ .

صاحَ نوح في أُولِڤَر بلَهْجَةِ أَمْرٍ ووَعيدٍ قائلًا : «افْتَحِ النَّوافِذَ ، أَيُّها الحَقيرُ الكَسولُ . افْعَلْ ما آمُرُكَ بِهِ . أَنْتَ يَتيمٌ مِنْ أَبْناءِ المَلْجَإِ ، أَلَسْتَ كَذلِكَ ؟» ثُمَّ أَتْبَعَ أَوامِرَهُ بِرَفْسَةٍ ولَكْمَةٍ إثْباتًا لِسَطْوَتِهِ .

قالَ أُولِڤَر مُذْعِنًا : «نَعَمْ ، وُلِدْتُ في المَلْجَإِ .»

وجَعَلَ نوح مِنْ تِلْكَ إهانَةً يَوْمِيَّةً يُوَجِّهُها إلى أُولِڤَر كُلَّما حَلا لَهُ ذلِكَ ، مُرْفِقًا إيّاها

بِضَرَباتٍ ورَفَساتٍ وشَتائمَ. عَلى أَنَّ إهاناتِهِ تَجاوَزَتْ ، ذاتَ يَوْمٍ ، الحَدَّ.

فقَدْ شَدَّ أُولِفَر مِنْ شَعْرِهِ وقالَ لَهُ: «يا فَتى المَلْجَإِ ، حَدِّثْني عَنْ أُمِّكَ.»

تَدَفَّقَ الدَّمُ في عُروقِ أُولِفَر ووَجَدَ صُعوبَةً بالِغَةً في السَّيْطَرَةِ عَلى غَضَبِهِ ، وقالَ بِصَوْتٍ واثِقٍ هادِئٍ:

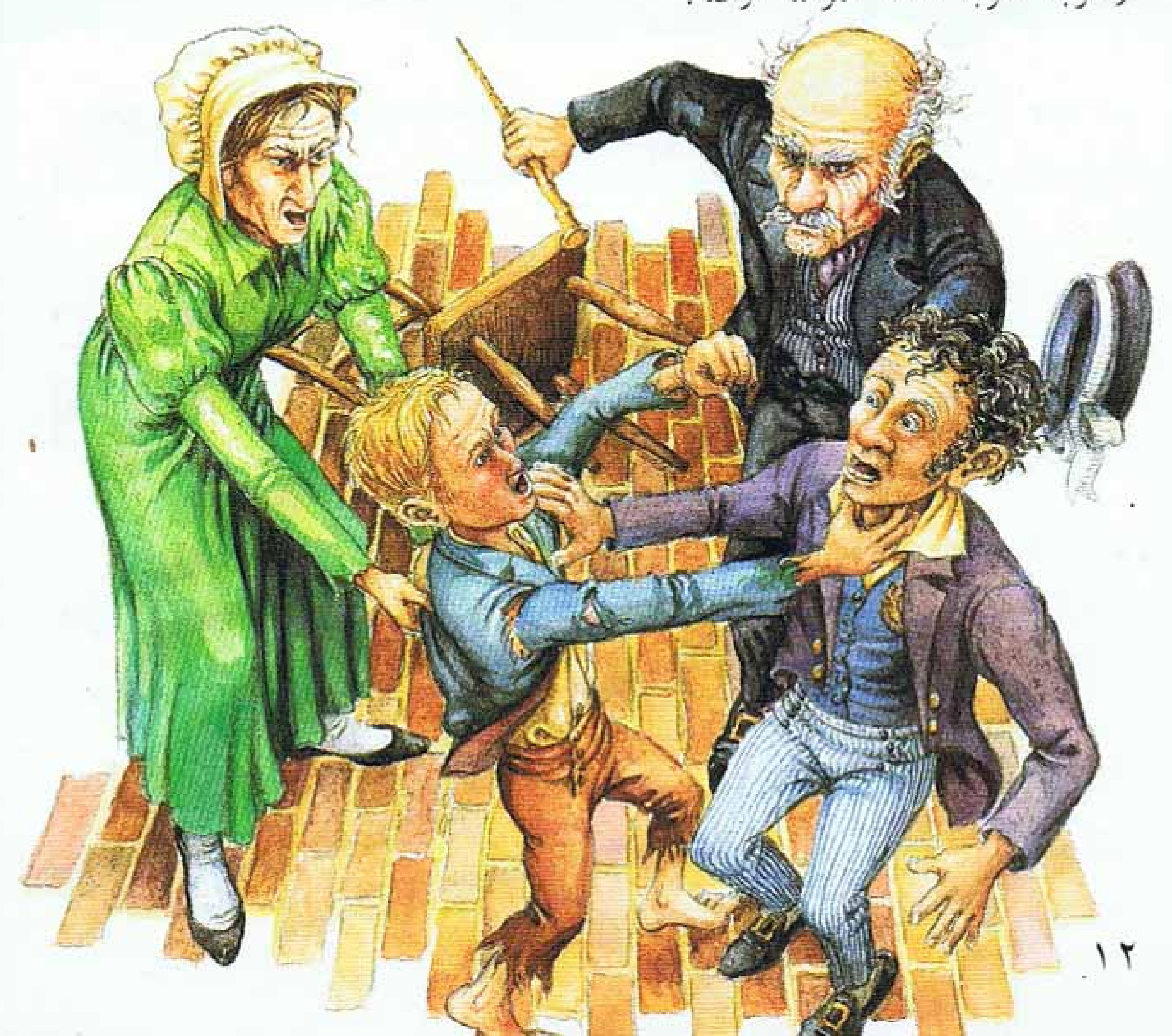
«إنَّها مَيِّتَةٌ. لا تَذْكُرْها بَعْدَ الآنَ.»

لٰكِنَّ نُوح اسْتَمَرَّ في تَعْذيبِ الفَتى ، وقالَ لَهُ: «كَيْفَ ماتَتْ؟»

سَقَطَتْ دَمْعَةٌ عَلى خَدِّ أُولِفَر وهْوَ يُجيبُ: «ماتَتْ كَسيرَةَ القَلْبِ.»

قالَ نُوح وقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ خَبيثَةٌ: «لا شَكَّ أَنَّها كانَتِ امْرَأَةً شِرِّيرَةً وإلّا لَما ماتَتْ في المَلْجَإِ. ولَعَلَّها كانَتْ مَحْظوظَةً إذْ تَخَلَّصَتْ مِنْ حَبْلِ المِشْنَقَةِ.»

شَعَرَ أُولِفَر بالدَّمِ يَغْلي في عُروقِهِ ، وقَفَزَ قَفْزَةً قَوِيَّةً وأَمْسَكَ الفَتى الحَقيرَ الحاقِدَ مِنْ عُنُقِهِ وضَرَبَهُ ضَرْبَةً هائلَةً صَرَعَتْهُ أَرْضًا.



أخَذَ نوح يَسْتَغيثُ بِالسَّيِّدِ سوَرْبري والسَّيِّدةِ زَوْجَتِهِ ، ويَصيحُ : «جَريمَةٌ ! جَريمَةٌ !»

اِنْدَفَعَ الحانوتيُّ وزَوْجَتُهُ إلى القاعَةِ واشْتَبَكا مع أُولِفَر في عِراكٍ شَرِسٍ انْتهى بِقَهْرِ الفتى ورَمْيِهِ في القَبْوِ المُظْلِمِ.

واسْتُدْعِيَ السَّيِّدُ بَمْبِل إلى بَيْتِ الحانوتيِّ عَلى عَجَلٍ. فَنَصَحَ السَّيِّدَ سوَرْبري أَنْ يُبْقِيَ أُولِفَر في القَبْوِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ لا يُقَدِّمُ لَهُ فيها إلّا الخُبْزُ والماءُ ، وأَلّا يُسْمَحَ لَهُ بِتَرْكِ القَبْوِ المُظْلِمِ إلّا لَيْلًا حينَ يَخْرُجُ لِينامَ بَيْنَ التَّوابيتِ. وخِلالَ ساعاتِ الظَّلامِ قَرَّرَ أُولِفَر الفِرارَ.

وما إنْ بَزَغَ الفَجْرُ حتّى كان قَدْ تَسَلَّلَ خارِجَ الحانوتِ وراحَ يَهيمُ في الشَّوارِعِ الخالِيَةِ على غَيْرِ هُدًى. أَخيرًا تَحَرَّرَ مِنْ مَنْزِلِ القَسْوَةِ والتَّعاسَةِ ، ومِنَ القِصاصِ والحِقْدِ.

مَشى أُولِفَر ساعاتٍ ، ثُمَّ رأى في الطَّريقِ صُوَّةً كُتِبَ عَلَيْها : «لَنْدَن – مِئَةُ كيلومِتْرٍ.»
عِنْدَها قَرَّرَ أَنْ تكونَ لَنْدَنَ غايَةَ مَطافِهِ ، لِأَنَّهُ كانَ يَسْمَعُ ، وهْوَ في المَلْجَإِ ، أَنَّ في تِلْكَ المَدينَةِ الكَبيرَةِ مَكانًا لِكُلِّ فَتًى نَشيطٍ.

جاهَدَ أُولِفَر سِتَّةَ أَيّامٍ مُتَواصِلَةٍ. كانَ الجوعُ قَدْ نالَ مِنْهُ والبَرْدُ أَرْهَقَهُ. وكانَ يَنامُ في الحُقولِ وعَلى أَكْوامِ التِّبْنِ ، وفي النَّهارِ يَقْرَعُ أَبْوابَ الأَكْواخِ الَّتي يَجِدُها في الطَّريقِ طالِبًا قَليلاً مِنَ الماءِ وكِسْرَةً مِنَ الخُبْزِ. وأَخيرًا وَصَلَ إلى بَلْدَةٍ قَريبَةٍ مِنْ مَشارِفِ العاصِمَةِ.

بَيْنَما كانَ أُولِفَر جالِسًا عَلى جانِبِ الطريقِ يَرْتاحُ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَتًى غَريبُ الهَيْئَةِ في مِثْلِ سِنِّهِ. كانَ فَتًى قَصيرًا نَحيلًا يَلْبَسُ مِعْطَفَ رِجالٍ ، ويَبْدو رابِطَ الجَأْشِ شَديدَ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ.

قالَ الفَتى مُخاطِبًا أُولِفَر : «مَرْحَبًا ! ما بِكَ ؟»
أَخْبَرَهُ أُولِفَر أَنَّهُ ، مُنْذُ سَبْعَةِ أَيّامٍ ، يَهيمُ في الطُّرُقاتِ ، يَنامُ في الحُقولِ وبَيْنَ الجَنَباتِ.

اِبْتَسَمَ الفَتى ابْتِسامَةَ المُطْمَئِنِّ الواثِقِ مِنْ نَفْسِهِ ، وقالَ : «إنْ كُنْتَ تَسْعى إلى لَنْدَن فإنَّ لي هُناكَ صَديقًا مُخْلِصًا قادِرًا عَلى أَنْ يُقَدِّمَ لَكَ الطَّعامَ والمَأْوى. وَسُرْعانَ ما سَيَتَدَبَّرُ لَكَ أَيْضًا أَمْرَ العُثورِ عَلى عَمَلٍ تَعْتاشُ مِنْهُ.»



كادَ أُولِفَر لا يُصَدِّقُ ما سَمِعَتْهُ أُذُناه. أَخيرًا، وَقَعَ عَلى صَديقٍ راغِبٍ في مُساعَدَتِهِ. فمدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ رَمْزًا لِلصَّداقَةِ والامْتِنان.

عِنْدَئِذٍ قالَ الفَتى: «اِسْمي جاك دوكِنْز. وأَصْدِقائي يَدْعونَني ثَعْلَبَة. سَتَكونُ مَعي ومَعَ أَصْدِقائي في أَحْسَنِ حالٍ.»

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وتَحْتَ جُنْحِ الظَّلامِ، دَخَلَ الفَتى بِأُولِفَر مَدينَةَ لَنْدَن وقادَهُ إِلى بَيْتٍ مَهْجورٍ في ناحِيَةٍ مِنَ المَدينَةِ بَشِعَةٍ وقَذِرَةٍ. بَدَأَتِ الشُّكوكُ والمَخاوِفُ تُساوِرُ أُولِفَر، وراحَ يَنْتَهِزُ الفُرْصَةَ لِلْهَرَبِ. لكِنْ قَبْلَ أَنْ تُتاحَ لَهُ تِلْكَ الفُرْصَةُ أَمْسَكَ ثَعْلَبَة ساعِدَهُ بِقُوَّةٍ وقادَهُ عَبْرَ مَمَرٍّ ضَيِّقٍ وأَغْلَقَ البابَ وَراءَهُ.

لَمحَ أُولِفَر في آخرِ المَمرِّ ضَوءَ شَمْعَةٍ يَتراقصُ . ورأى خَلْفَ هٰذا الضَّوْءِ وَجْهَ رَجلٍ يَنْظُرُ نِظْرَةَ ارْتيابٍ وتَوَجُّسٍ ، ثُمَّ سَمِعَ صَوْتَ ذٰلِكَ الرَّجُلِ يَقولُ :

«لَسْتَ وَحْدَكَ اليَوْمَ يا ثَعْلَبة. مَنْ هٰذا الَّذي جِئْتَ بِهِ؟»

أَجابَ ثَعْلَبَة : «إنَّهُ وَلَدٌ جَديدٌ. هَلْ فاغِن في الطّابَقِ العُلْوِيِّ؟»

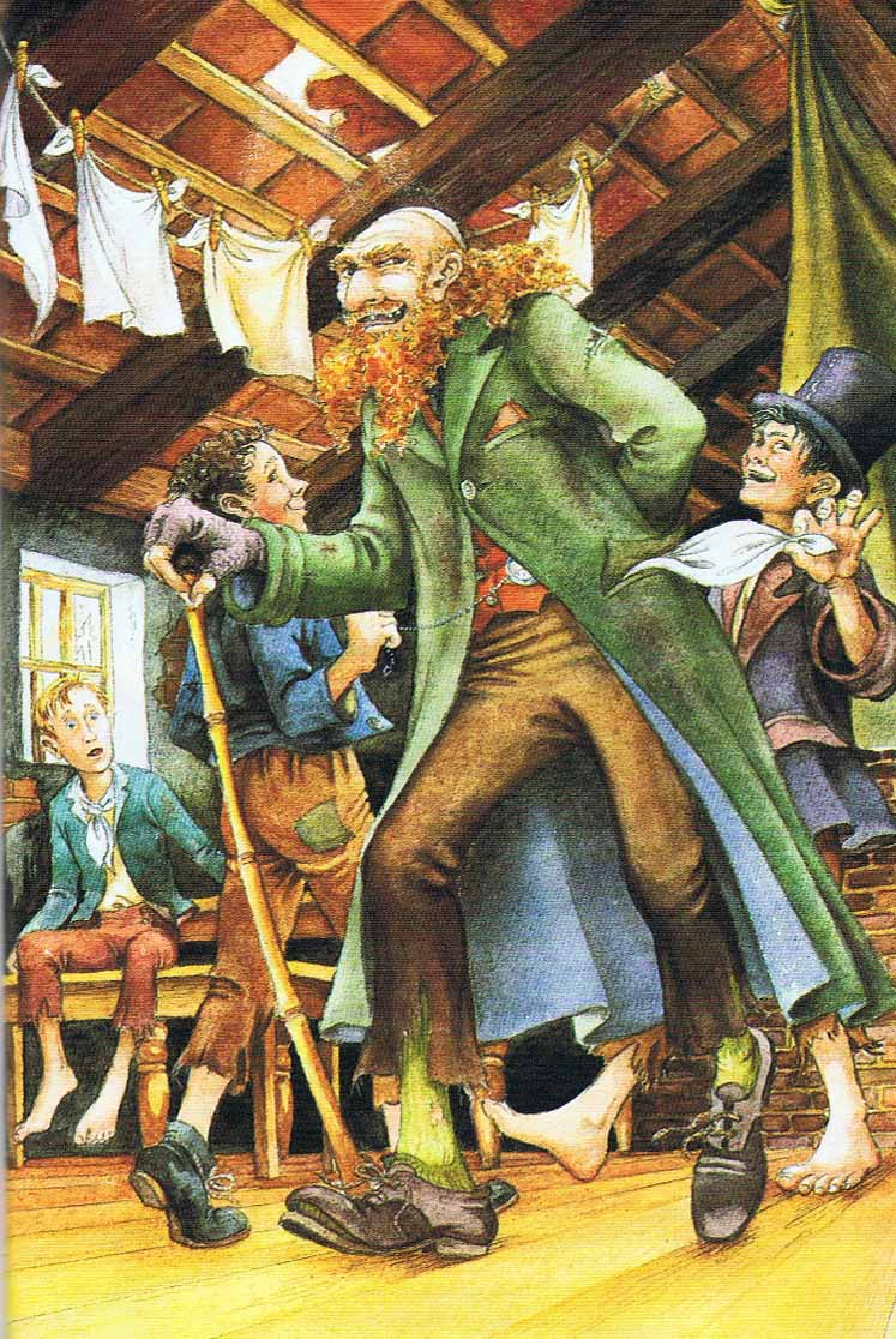
أَجابَ الرَّجُلُ : «نَعَمْ إنَّهُ فَوْقُ ، يَتأَمَّلُ مُقْتَنَياتِهِ ومَغانِمَهُ ويَفْرِزُها بَعْضَها عَنْ بَعْضٍ . إنَّه في انْتِظارِكَ ويُريدُ أَنْ يَراكَ في الحالِ.»

اِقْتيدَ أُولِفَر عَبْرَ الدَّرَجِ الخَشَبِيِّ المُخَلَّعِ إلى غُرْفَةٍ خَلْفِيَّةٍ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، غُرْفَةٍ مُخَلَّعَةِ البابِ والشَّبابيكِ ، مُتَداعِيَةِ الجُدْرانِ مُشَقَّقَةِ السَّقْفِ ، وَسِخَةٍ مُسْوَدَّةٍ مِنْ آثارِ الدُّخانِ . وفي زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا الغُرْفَةِ مَوْقِدٌ صَغيرٌ يَشْتَعِلُ بالفَحْمِ الحَجَرِيِّ ، وأَمامَ ذٰلِكَ المَوْقِدِ طاوِلَةٌ عَلَيْها شَمْعَةٌ مَحْشورَةٌ في فَمِ قِنّينَةٍ وفِنْجانانِ أَوْ ثَلاثَةُ فَناجينَ وبَعْضُ الزُّبْدَةِ وصَحْنٌ واحِدٌ. وفَوْقَ المَوْقِدِ مِقْلاةٌ فيها بَعْضُ المَقانِقِ . وأَمامَ ذٰلِكَ المَوْقِدِ وَقَفَ رَجُلٌ عَجوزٌ شَرِسُ الهَيْئَةِ ، مُتَقَوِّسُ الظَّهْرِ ، هَزيلٌ ، ذو شَعْرٍ أَحْمَرَ مُهْمَلٍ ، ولِحْيَةٍ مُشَعَّثَةٍ وبِضْعِ أَسْنانٍ صَفْراءَ سَوْداءَ ، أَقْرَبَ في شَكْلِها إلى المَخالِبِ مِنْها إلى الأَسْنانِ . وكانَ ذٰلِكَ العَجوزُ يَلْبَسُ رِداءً صوفِيًّا مُلَطَّخًا بالزَّيْتِ والشَّحْمِ ، وبَدا مِنْ تَصَرُّفِهِ أَنَّ الفِتْيانَ الخَمْسَةَ الَّذينَ كانوا يَجْلِسونَ حَوْلَ الطّاوِلَةِ يَأْتَمِرونَ بِأَمْرِهِ.

كانَ أُولٰئِكَ الفِتْيانُ الخَشِنو الهَيْئَةِ يُدَخِّنونَ التَّبْغَ ، ويَشْرَبونَ ويَتَصَرَّفونَ كَما يَشْرَبُ الرّاشِدونَ ويَتَصَرَّفونَ . وحينَ دَخَلَ ثَعْلَبَة وأُولِفَر الْتَفَتَ الفِتْيانُ يَتَأَمَّلونَ الزّائِرَ الجَديدَ . فقالَ جاك دوكِنْز مُخاطِبًا فاغِن :

«أُعَرِّفُكَ بِصَديقي أُولِفَر تْوِسْت.»

اِبْتَسَمَ العَجوزُ لِأُولِفَر وانْحَنى انْحِناءَةً خَفيفَةً ، ثُمَّ أَمْسَكَ يَدَهُ ورَحَّبَ بِهِ في جَماعَتِهِ . وانْفَجَرَ الأَوْلادُ يَضْحَكونَ ، ثُمَّ حَذَوْا حَذْوَ سَيِّدِهِمْ فَراحوا يَنْحَنونَ لِأُولِفَر ويَهُزّونَ يَدَهُ هَزًّا عَنيفًا. في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ارْتَمى الفِتْيانُ فَوْقَ أَكْوامٍ مِنَ الأَكْياسِ العَتيقَةِ ، وسُرْعانَ ما غَرِقوا في نَوْمٍ عَميقٍ.



فِي صَباحِ اليَوْمِ التّالي رأى أُولِفَر فاغِن والفِتْيانَ يَلْعبونَ لُعْبَةً مُحيِّرَةً غَريبَةً. لٰكِنَّهُ سُرْعانَ ما أَدْرَكَ أَنَّ العَجوزَ يُدَرِّبُ الفِتْيانَ على فَنِّ النَّشْلِ.

كانَ فاغِن يَذْرَعُ الغُرْفَةَ ذَهابًا وإيابًا مُخْتالًا في مِشْيَتِهِ مُتَباهِيًا، وقَدْ وَضَعَ مِنْديلًا حَريرِيًّا في جَيْبِ الصَّدرِ العُلْيا، ومَحْفَظَةَ نُقودٍ في جَيْبٍ جانِبِيَّةٍ، وعُلْبَةَ تَبْغٍ في جَيْبٍ أُخرى، وساعَةً فِضِّيَّةً في جَيْبِ الخَصْرِ، كَما إنَّهُ عَلَّقَ دَبوسًا مُطَعَّمًا بِالماسِ في صَدْرِ قَميصِهِ. ثُمَّ يَتَوقَّفُ ويَنْحَني إلى الأَمامِ وكأَنَّهُ يَنْظُرُ في واجِهَةِ أَحَدِ المَخازِنِ. ويَلْتَفُّ الفِتْيانُ حَوْلَهُ، عِنْدَئذٍ، يَحْتَكّونَ بِهِ، ويَنْشُلونَ مِنْهُ في لَحَظاتٍ كُنوزَهُ كُلَّها.

تَدَرَّبَ الفِتْيانُ عَلى تِلْكَ اللُّعْبَةِ مَرّاتٍ. ثُمَّ طَلَبَ فاغِن مِنْ أُولِفَر أَنْ يُجَرِّبَ مَهارَتَهُ، فَفَعَلَ. وأَرْضَتِ النَّتيجَةُ فاغِن ورأى أَنَّ لِلْفَتى مُسْتَقْبَلًا زاهِرًا في هٰذِهِ المِهْنَةِ، فَقالَ:

«أَنْتَ فَتًى ذَكيٌّ، يا أُولِفَر، لَمْ أَعْرِفْ في حَياتي فَتًى أَنْبَهَ مِنْكَ. إِلَيْكَ هٰذا الشِّلِنَ. إنَّ لَكَ مُسْتَقْبَلًا زاهِرًا إنْ أَنْتَ تَقَيَّدْتَ بِما أَطْلُبُهُ مِنْكَ.»

تَساءَلَ أُولِفَر بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ كَيْفَ يُمْكِنُ لِمِثْلِ تِلْكَ الأَعْمالِ أَنْ تُؤَمِّنَ لَهُ مُسْتَقْبَلًا زاهِرًا، لٰكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ مِنَ الحِكْمَةِ أَلّا يُفْصِحَ عَنْ شُكوكِهِ في ذٰلِكَ الوَقْتِ.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، دَخَلَ الغُرْفَةَ صَبِيَّتانِ تُدْعَيانِ بت ونانسي، تَلْبَسانِ ثِيابًا لا تَكَلُّفَ فيها وتَتَصَرَّفانِ تَصَرُّفاتٍ مُحَبَّبَةً لا قُيودَ فيها ولا حَرَجَ. وأَقامَتِ الفَتاتانِ بُرْهَةً تَشْرَبانِ كَما يَشْرَبُ الفِتْيانُ وتَتَصَرَّفانِ كَما يَتَصَرَّفونَ، مِمّا أَوْحى لأُولِفَر أَنَّهُما عُضْوانِ مُنْتَظِمانِ في العِصابَةِ.

خَضَعَ أُولِفَر أَيّامًا لِتَدْريبِ فاغِن وفِتْيانِهِ. وكانَ يُحِسُّ بِمَقْتٍ شَديدٍ لِبَقائِهِ في البَيْتِ المُوحِشِ القاتِمِ، فَرَجا سَيِّدَهُ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِالانْطِلاقِ مَعَ الفِتْيانِ إلى الشَّوارِعِ في غَزْوَةٍ مِنْ غَزَواتِهِمْ. وهٰكَذا خَرَجَ أُولِفَر مَعَ ثَعْلَبَة وفَتًى آخَرَ اسْمُهُ تشارلي بيتس، إلى إِحْدى المَناطِقِ التِّجارِيَّةِ المُزْدَحِمَةِ. وأَخَذَ الثَّلاثَةُ يُراقِبونَ مَسْرَحَ العَمَلِيَّةِ بِضْعَ دَقائِقَ، ثُمَّ هَتَفَ ثَعْلَبَة فَجْأَةً:

«أُنْظُرا! أَتَرَيانِ ذٰلِكَ العَجوزَ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الشّارِعِ؟»

أَجابَ تْشارلي: «نَعَمْ، أَنا أَراهُ. يَبْدو لي صَيْدًا مُناسِبًا.»



لَمْ يَكُنْ أُولِڤَر يَنْوي أَنْ يُشارِكَ رَفيقَيْهِ في النَّشْلِ ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يَدْرِ ماذا يَفْعَلُ فَلَحِقَ بِهِما ودَخَلَ وَراءَهُما مَكْتَبَةً وَقَفَ فيها الرَّجُلُ العَجوزُ يَتَصَفَّحُ كِتابًا. دَبَّ الهَلَعُ في قَلْبِ أُولِڤَر حينَ رَأى ثَعْلَبَة يَمُدُّ يَدًا رَشيقَةً إلى العَجوزِ ويَنْشُلُ مِنْديلَهُ الحَريرِيَّ ويَتَسَلَّلُ مُبْتَعِدًا بِخِفَّةٍ.

في تِلْكَ الأَثْناءِ اكْتَشَفَ العَجوزُ أَنَّهُ فَقَدَ مِنْديلَهُ ، ووَقَعَ نَظَرُهُ على أُولِڤَر وَهْوَ يُحاوِلُ الجَرْيَ وَراءَ رَفيقَيْهِ اللَّذَيْنِ كانا قَدْ تَوارَيا عَنِ الأَنْظارِ ، فَصَرَخَ :

«أَوْقِفوا اللِّصَّ ! أَوْقِفوا اللِّصَّ !» وسُرْعانَ ما اشْتَرَكَ المارَّةُ بالمُطارَدَةِ.

لَمْ يَكُنْ أُولِڤَر مِنَ القُوَّةِ بِحَيْثُ يُنَجِّيهِ جَرْيُهُ ، وسُرْعانَ ما وَصَلَ إِلَيْهِ أَوَّلُ المُطارِدينَ ، وكانَ رَجُلًا ضَخْمًا فَظًّا ، فضَرَبَهُ ضَرْبَةً رَمَتْهُ أَرْضًا . وأَمْسَكَ أَحَدُ رِجالِ الشُّرْطَةِ بِالفَتى المَنْكودِ الحَظِّ وجَرَّهُ إِلى القاضي المَحَلِّيِّ لِمُحاكَمَتِهِ . وكانَ العَجوزُ الَّذي تَعَرَّضَ لِلنَّشْلِ رَجُلًا طَيِّبَ القَلْبِ ، وقَدْ ساءَهُ ما تَعَرَّضَ لَهُ أُولِڤَر مِنْ مُعامَلَةٍ خَشِنَةٍ وما أَصابَهُ مِنْ جِراحٍ . فرافَقَ أُولِڤَر والشُّرْطِيَّ إِلى مَكْتَبِ القاضي .

وَصَفَ العَجوزُ ، واسْمُهُ السَّيِّدُ بْراونْلو ، ما حَدَثَ ، وقالَ إِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُؤَكِّدَ أَنَّ أُولِڤَر هُوَ النَّشّالُ الحَقيقِيُّ ، لِأَنَّهُ شَعَرَ أَنَّ أَوْلادًا غَيْرَهُ مُتَوَرِّطونَ في العَمَلِيَّةِ . في تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَ صاحِبُ المَكْتَبَةِ لاهِثًا قاعَةَ المَحْكَمَةِ وَشَهِدَ أَنَّ الَّذي نَشَلَ المِنْديلَ فَتَيانِ غَيْرَ أُولِڤَر ، وأَنَّ أُولِڤَر لَيْسَ إِلّا عابِرَ سَبيلٍ أَفْزَعَتْهُ المُفاجَأَةُ . فلَمْ يَكُنْ أَمامَ القاضي ، بَعْدَ تِلْكَ الشَّهادَةِ ، إِلّا أَنْ يَأْمُرَ بِإِطْلاقِ سَراحِ الفَتى .

لَمْ يَسْتَطِعْ أُولِڤَر المُنْهَكُ تَحَمُّلَ الصَّدْمَةِ فوَقَعَ في الطَّريقِ أَمامَ مَكْتَبِ القاضي مُغْمًى عَلَيْهِ . واتَّفَقَ أَنْ خَرَجَ العَجوزُ في هٰذا الوَقْتِ فَأَقْبَلَ عَلى الفَتى وهَتَفَ :

«يا لَلْفَتى المِسْكينِ ! يا لَلْفَتى المِسْكينِ ! إِلَيَّ بِعَرَبَةٍ في الحالِ .»

حُمِلَ أُولِڤَر إِلى العَرَبَةِ ، فَتَحَرَّكَتْ إِلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ براونْلو .

ظَلَّ أُولِڤَر أَيّامًا يُعاني مِنْ حَرارَةٍ عالِيَةٍ ، لا يَعي شَيْئًا مِمّا حَوْلَهُ . وكانَ يَقومُ عَلى العِنايَةِ بِهِ في تِلْكَ الفَتْرَةِ مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ الحَنونُ السَّيِّدةُ بِدْوِن . وأَخيرًا فَتَحَ أُولِڤَر عَيْنَيْهِ ، وكانَ ضَعيفًا شاحِبًا ، ونَظَرَ حَوْلَهُ . فتَأَثَّرَ تَأَثُّرًا عَميقًا بِما رَأى . ومَدَّ يَدَهُ الهَزيلَةَ الصَّغيرَةَ إِلى يَدِ السَّيِّدةِ بِدْوِن الَّتي كانَتْ تُسَوّي وِسادَتَهُ وضَغَطَ عَلَيْها شُكْرانًا مِنْهُ وعِرْفانًا لِلْجَميلِ .

اِغْرَوْرَقَتْ عَيْنا السَّيِّدةِ الكَريمَةِ بِالدُّموعِ ، وقالَتْ : «ما أَطْيَبَ هٰذا الفَتى الحافِظَ لِلْجَميلِ ، وما أَلْطَفَهُ !»

حاوَلَتِ السَّيِّدةُ الكَريمَةُ ، عَصْرَ ذٰلِكَ اليَوْمِ ، أَنْ تُثيرَ اهْتِمامَ أُولِڤَر بِما حَوْلَهُ فلَفَتَتِ انْتِباهَهُ إِلى رَسْمِ امْرَأَةٍ شابَّةٍ مُعَلَّقٍ عَلى الحائِطِ .

سَحَرَ الجَمالُ الهادِئُ الفاتِنُ الَّذي كانَ يُطِلُّ مِنْ رَسْمِ السَّيِّدةِ الشّابَّةِ عَقْلَ أُولِڤَر، لٰكِنْ لَمْ تَسْتَطِعِ السَّيِّدةُ بِدْوِن أَنْ تُخبِرَهُ مَنْ تكونُ صاحِبَةُ ذٰلِكَ الرَّسْمِ. دَخَلَ السَّيِّدُ بْراونْلو الغُرْفَةَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وكانَ قَدْ عَرَفَ أَنَّ أُولِڤَر قَدِ اسْتَعادَ شَيْئًا مِنْ عافِيَتِهِ فجاءَ يُحادِثُهُ. وبَيْنَما كانَ يَقْتَرِبُ مِنَ الصَّبِيِّ تَوَقَّفَ فَجْأَةً ونَظَرَ إلى الرَّسْمِ المُعَلَّقِ عَلى الحائط ثُمَّ إلى الصَّبِيِّ، وقالَ وقَدْ مَلأَتِ الدَّهْشَةُ عَيْنَيْهِ:

«ما أَغْرَبَ هٰذا الأَمْرَ يا سَيِّدةُ بِدْوِن! أُنْظُري!» وكانَ، وهْوَ يَتَكَلَّمُ، يُشيرُ إلى الرَّسْمِ تارَةً وإلى أُولِڤَر تارَةً أُخْرى. وبَدا أُولِڤَر نُسْخَةً مُجَسَّدَةً حَيَّةً لِما في الرَّسْمِ. وكانَ ذٰلِكَ الَّذي لاحَظَهُ العَجوزُ سَبَبًا في حَيْرَتِهِ وقَلَقِهِ لِزَمَنٍ طَويلٍ آتٍ.

اُسْتُدْعِيَ أُولِڤَر، بَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، إلى مَكْتَبَةِ السَّيِّدِ بْراونْلو لِيَسْرُدَ عَلَيْهِ قِصَّةَ طُفولَتِهِ. وكانَ مَعَ السَّيِّدِ بْراونْلو في المَكْتَبَةِ صَديقُهُ القَديمُ السَّيِّدُ غْرِمْوِغ. وكانَتِ السَّيِّدةُ بِدْوِن، احْتِفالًا بِتَعافي الفَتى تَعافِيًا تامًّا، قَدْ قَدَّمَتْ لَهُ ثَوْبًا جَديدًا جَميلًا وزَوْجًا مِنَ الأَحْذِيَةِ.

راحَ أُولِڤَر يَسْرُدُ قِصَّةَ طُفولَتِهِ، لٰكِنْ بَدا واضِحًا أَنَّ السَّيِّدَ غْرِمْوِغ لا يُصَدِّقُ كُلَّ ما يَسْمَعُ مِنَ الأَحْداثِ الغَريبَةِ. وبَيْنَما كانَ أُولِڤَر لا يَزالُ يَسْرُدُ مَراحِلَ حَياتِهِ الأُولى دَخَلَتِ السَّيِّدَةُ بِدْوِن تَحْمِلُ لِلسَّيِّدِ بْراونْلو رِزْمَةً مِنَ الكُتُبِ. وكانَ الفَتى الَّذي حَمَلَ الرِّزْمَةَ قَدْ رَحَلَ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ السَّيِّدُ بْراونْلو مِنْ دَفْعِ ثَمَنِها. فَوَقَفَ أُولِڤَر بِحَماسَةٍ وقالَ:

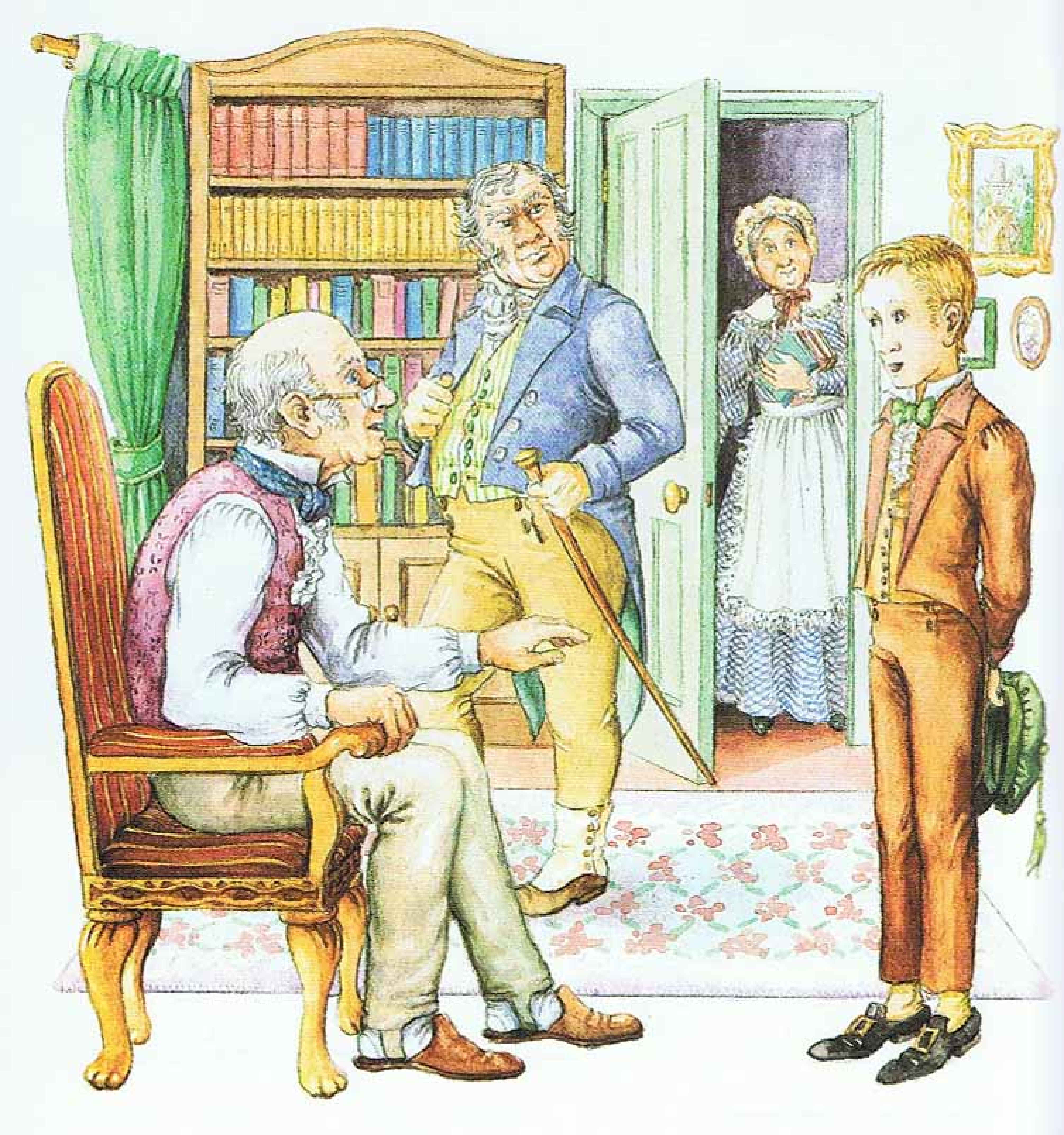
«أَنا أُوصِلُ ثَمَنَ الكُتُبِ، يا سَيِّدي. سَأَقْطَعُ الطَّريقَ كُلَّها رَكْضًا.»

سُرَّ السَّيِّدُ بْراونْلو بِحَماسَةِ أُولِڤَر، وقالَ: «أَنْتَ فَتًى رائِعٌ. إِلَيْكَ خَمْسَةَ جُنَيْهاتٍ. اِدْفَعْ لِلبائِعِ مِنْها أَرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ وعَشَرَةَ شِلِناتٍ، وأَعِدِ العَشَرَةَ شِلِناتِ الباقِيَةَ.»

أَسْرَعَ أُولِڤَر لِإِنْجازِ مُهِمَّتِهِ وهْوَ يَقولُ: «لَنْ أَغيبَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دَقائِقَ.»

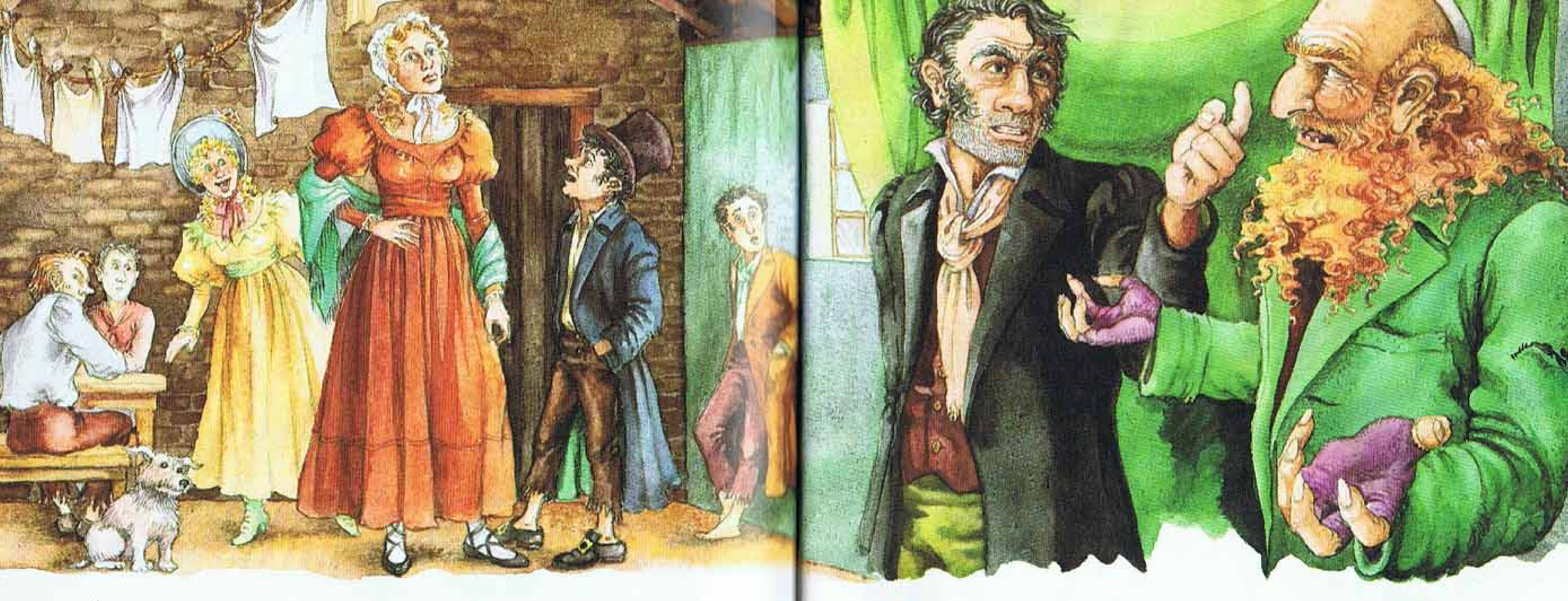
بَعْدَ ذَهابِ أُولِڤَر، ابْتَسَمَ السَّيِّدُ غْرِمْوِغ في وَجْهِ صَديقِهِ الطَّيِّبِ القَلْبِ، وقالَ لَهُ:
«أَتَظُنُّ حَقًّا أَنَّهُ عائِدٌ إِلَيْكَ؟»

بَدا السُّخْطُ عَلى وَجْهِ السَّيِّدِ بْراونْلو وهْوَ يَقولُ: «سَيَعودُ حَتْمًا. أُولِڤَر فَتًى صادِقٌ



وأمينٌ . يُمْكِنُ الوُثوقُ بِهِ . وسَيَكونُ هُنا في بَحْرِ عِشْرينَ دَقيقَةً . »

جَلَسَ الرَّجُلانِ يَعُدّانِ الدَّقائقَ ، ويُداومُ كُلٌّ مِنْهُما النَّظَرَ في ساعَتِهِ . وسُرْعانَ ما أَخَذَ الظَّلامُ يَهْبطُ . ثُمَّ مَرَّتْ ساعَتانِ فَبَدا جَلِيًّا أَنَّ عَوْدَةَ أُولِفَر لَمْ تَعُدْ مُحْتَمَلَةً ، لَيْسَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَلى أَيِّ حالٍ . هَزَّ السَّيِّدُ غْرِمْوغ رأْسَهُ هِزَّةَ العارِفِ الواثِقِ مِنْ نَفْسِهِ وكأَنَّهُ يَقولُ : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ ؟ »



نَعودُ إلى مَرْكَزِ العِصابَةِ الَّذي دَبَّ فيهِ الذُّعْرُ حينَ رَجَعَ ثَعْلَبَة وَتشارلي بيتْس دون أَنْ يَكونَ أُولِفَر مَعَهُما. وَتَجاذَبَتْ هَواجِسُ الذُّعْرِ والغَضَبِ العَجوزَ فاغن حينَ عَلِمَ أَنَّ الشُّرْطَةَ أَلْقَتِ القَبْضَ عَلى أُولِفَر بَعْدَ المُطارَدَةِ الَّتي جَرَتْ خارِجَ المَكْتَبَةِ. وَتَعالَتْ أَصْواتُ سائِرِ الأَشْرارِ بالاتِّهامِ. كُلٌّ مِنْهُمْ يَلومُ الآخَرَ ويَنْسُبُ إِلَيْهِ التَّقْصيرَ. فَجْأَةً، وَصَلَ زائِرٌ يَعْرِفُهُ الجَميعُ، وأَوْقَفَ وُصولُهُ صُراخَ المُتَخاصِمينَ. كانَ ذٰلِكَ الزّائِرُ بِل سايكْس، أَحَدَ زُعَماءِ العِصابَةِ.

كانَ بِلْ سايكْس رَجُلًا قَوِيَّ البِنْيَةِ، في حَوالى الخامِسَةِ والثَّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ. وكانَ ذا عَيْنَيْنِ عابِسَتَيْنِ، ووَجْهٍ شَرِسٍ غاضِبٍ، ولِحْيَةٍ قَصيرَةٍ. وبَدا أَنَّ القَسْوَةَ في هَيْئَتِهِ تَنِمُّ عَنْ قَسْوَةٍ في أَعْمالِهِ. وكانَ إِلى جانِبِهِ، لا يُفارِقُهُ أَبَدًا، كَلْبُهُ الأَبْيَضُ. وما كانَ ذٰلِكَ الكَلْبُ يُفارِقُهُ عَلى الرُّغْمِ مِنَ الرَّفَساتِ الَّتي يَتَلَقّاها مِنْهُ واللَّكَماتِ.

أَحَسَّ سايكْس أَنَّ شَيْئًا خَطيرًا قَدْ حَدَثَ، فقالَ بِلَهْجَةِ الآمِرِ: «ما الحِكايَةُ؟»
فَأَجابَ فاغِن بِصَوْتٍ يائِسٍ: «الشُّرْطَةُ أَلْقَتِ القَبْضَ عَلى أُولِفَر، وقَدْ يُفْشي مِنْ أَسْرارِنا ما يُوقِعُنا جَميعًا في المَتاعِبِ.»
اِسْتَمَعَ سايكْس إِلى الخَبَرِ كُلِّهِ ثُمَّ قالَ: «الأَمْرُ خَطيرٌ، لٰكِنْ عَلَيْنا أَوَّلًا أَنْ نَعْرِفَ ما جَرى في مَكْتَبِ القاضي.»

زادَ هٰذا الاقْتِراحُ في خَوْفِ أَفْرادِ العِصابَةِ، إِذْ كانَ آخِرُ ما يُفَكِّرُ فيهِ أَيٌّ مِنْهُمْ هُوَ الاقْتِرابَ مِنْ مَكْتَبِ القاضي أَوْ مِنْ مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ. في تِلْكَ الأَثْناءِ، دَخَلَتِ الصَّبِيَّتانِ بِت ونانْسي القاعَةَ، فَخَطَرَ لِلْمُجْتَمِعينَ خاطِرٌ وَجَدوا فيهِ حَلًّا لِمُشْكِلَتِهِمْ. ولَمْ يَجِدْ بِلْ سايكْس صُعوبَةً في إِقْناعِ نانْسي في تَوَلّي تِلْكَ المُهِمَّةِ الخَطِرَةِ، لِأَنَّها كانَتْ تَعْرِفُ وَسائِلَهُ الوَحْشِيَّةَ في الإِقْناعِ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً.

اِتَّجَهَتْ في الحالِ إلى مَرْكَزِ الشُّرْطَةِ ، مُتَظاهِرَةً بِأَنَّها تَبْحَثُ عَنْ أَخيها الضّائِعِ .

اِقْتَرَبَتْ مِنَ المَرْكَزِ وهِيَ تَبْكي بِتَأَثُّرٍ قائِلَةً :

«أَيْنَ أَنْتَ يا أَخي؟ ماذا جَرى لَكَ؟ إلى أَيْنَ أَخَذوكَ؟»

اِقْتَرَبَتْ ، وهِيَ عَلى هٰذِهِ الحالِ مِنَ النَّشيجِ والتَّحَسُّرِ ، مِنَ الشُّرْطِيِّ المُناوِبِ في المَرْكَزِ وقالَتْ بِلَهْفَةٍ : «أَشْفِقْ عَلَيَّ ، يا سَيِّدي . ساعِدْني كَيْ أَجِدَ أَخي الصَّغيرَ المِسْكينَ .»

تَأَثَّرَ الشُّرْطِيُّ بِتِلْكَ المَشاعِرِ الأَخَوِيَّةِ المُقْنِعَةِ تَأَثُّرًا عَميقًا . فَأَخْبَرَ نانْسي أَنَّهُ أُفْرِجَ عَنْ أُولِفَر لِفِقْدانِ الدَّليلِ ، وأَنَّ الرَّجُلَ الَّذي وَجَّهَ إلَيْهِ الاتِّهامَ أَخَذَهُ إلى بَيْتِهِ الكائِنِ في مُقاطَعَةِ بِنْتُنْقيل لِلْعِنايَةِ بِهِ .

أَقامَتْ نانْسي أُسْبوعًا تَدورُ في شَوارِعِ مُقاطَعَةِ بِنْتُنْقيل عَلَّها تَعْرِفُ مَكانَ إقامَةِ أُولِفَر . واتَّفَقَ ذاتَ مَساءٍ أَنَّها لَمَحَتْهُ بَيْنَما كانَ مُتَّجِهًا إلى بائِعِ الكُتُبِ تَنْفيذًا لِلمُهِمَّةِ الَّتي كَلَّفَهُ السَّيِّدُ بْراونْلو القِيامَ بِها . أَسْرَعَتْ نانْسي إلَيْهِ وتَشَبَّثَتْ بِهِ بِجُرْأَةٍ . إلى أَنْ وَصَلَ بِل سايكْس الَّذي كانَ يَتْبَعُها عَنْ كَثَبٍ . واقْتيدَ أُولِفَر بِالقُوَّةِ إلى زُقاقٍ وَسِخٍ خالٍ مِنَ المارَّةِ ، وأُدْخِلَ إلى دُكّانٍ مَهْجورٍ .

كانَ في انْتِظارِهِمْ هُناكَ فاغِن وثَعْلَبَة وتشارلي بيتس . اِسْتَقْبَلَ الفَتَيانِ أُولِفَر بِالزَّمْجَرَةِ والضَّحِكاتِ السّاخِرَةِ . وانْقَضّوا عَلَيْهِ في الحالِ يُفَتِّشونَ جُيوبَ سِتْرَتِهِ الجَديدَةِ ، وأَخَذوا مِنْهُ الجُنَيْهاتِ الخَمْسَةَ . قاوَمَ أُولِفَر وصَرَخَ مُحْتَجًّا ، فَأَمْسَكَ فاغِن عَصًا غَليظَةً وانْهالَ بِها عَلى ظَهْرِ الفَتى البائِسِ المِسْكينِ .

رَكَعَ أُولِفَر ، وتَوَسَّلَ قائِلاً : «أَرْجوكَ يا سَيِّدي ! أَبْقِني مَعَكَ إنْ شِئْتَ ، لكِنْ أَتَوَسَّلُ إلَيْكَ أَنْ تُعيدَ المالَ إلى العَجوزِ الطَّيِّبِ الَّذي اعْتَنى بي ، وإلّا ظَنَّ أَنّي سارِقٌ .»

ضَحِكَ فاغِن ضَحِكاتٍ عالِيَةً ، وقالَ : «تَمامًا ، يا صَديقي الشّابُّ ! هٰذا هُوَ تَمامًا ما نُريدُهُ أَنْ يَظُنَّ بِكَ . فَأَنْتَ الآنَ تَحْتَ رَحْمَتِنا ، إنْ لَمْ تَفْعَلْ ما نَطْلُبُهُ مِنْكَ سَنَرْمي بِكَ إلى أَيْدي الشُّرْطَةِ لِتُحاكَمَ بِتُهْمَةِ السَّرِقَةِ .»



أدْرَكَ أُولِڤَر ألّا رَجاءَ مِنْ مُحاوَلَتِهِ اسْتِعْطافَ العِصابَةِ ، وَأَحَسَّ بالأَلَمِ لِلظُّلْمِ الَّذي وَقَعَ عَلَيْهِ ، فانْدَفَعَ انْدِفاعَةً مَجْنونَةً مُحاوِلًا الهَرَبَ ، وهُوَ يَصْرُخُ صُراخًا مُتَقَطِّعًا طالِبًا النَّجْدَةَ . لٰكِنَّ سايكْس وكَلْبُهُ انْطَلَقا وراءَهُ كَما يَنْطَلِقُ البَرْقُ وانْقَضّا عَلَيْهِ وأَوْقَعاهُ أَرْضًا يَتَلَوّى مِنْ الَمِ . ثُمَّ أَقْبَلَ فاغِن ورَفَعَ عَصاهُ الغَليظَةَ لِيُؤَدِّبَهُ ، لٰكِنْ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَ ذٰلِكَ ، ودونَ أَنْ يَتَوَقَّعَ أَحَدٌ حُدوثَ ما حَدَثَ ، انْدَفَعَتْ نانسي إلى فاغِن واخْتَطَفَتْ مِنْهُ عَصاهُ ورَمَتْها بَعيدًا ، وهْيَ تَصْرُخُ :

«لَنْ أَقِفَ مَكْتوفَةَ اليَدَيْنِ بَعْدَ الآنَ . اُتْرُكِ الصَّبِيَّ . حَصَلْتَ عَلَيْهِ وعَلى المالِ ، فارْفَعْ يَدَكَ عَنْهُ وإلّا قَتَلْتُكَ .»

فاجَأَ تَصَرُّفُ نانسي الغَريبُ أُولِڤَر . فَقَدْ بَدَتْ في نَوْبَةِ جُنونٍ ، وانْدَفَعَتْ ، وهْيَ عَلى تِلْكَ الحالِ ، نَحْوَ فاغِن تُريدُ إنْشابَ أَظافِرِها في عَيْنَيْهِ . لٰكِنَّ بِل سايكْس حالَ بَيْنَها وبَيْنَ هَدَفِها وأَمْسَكَ بِها بِقُوَّةٍ ، فَأُغْمِيَ عَلَيْها بَيْنَ يَدَيْهِ .

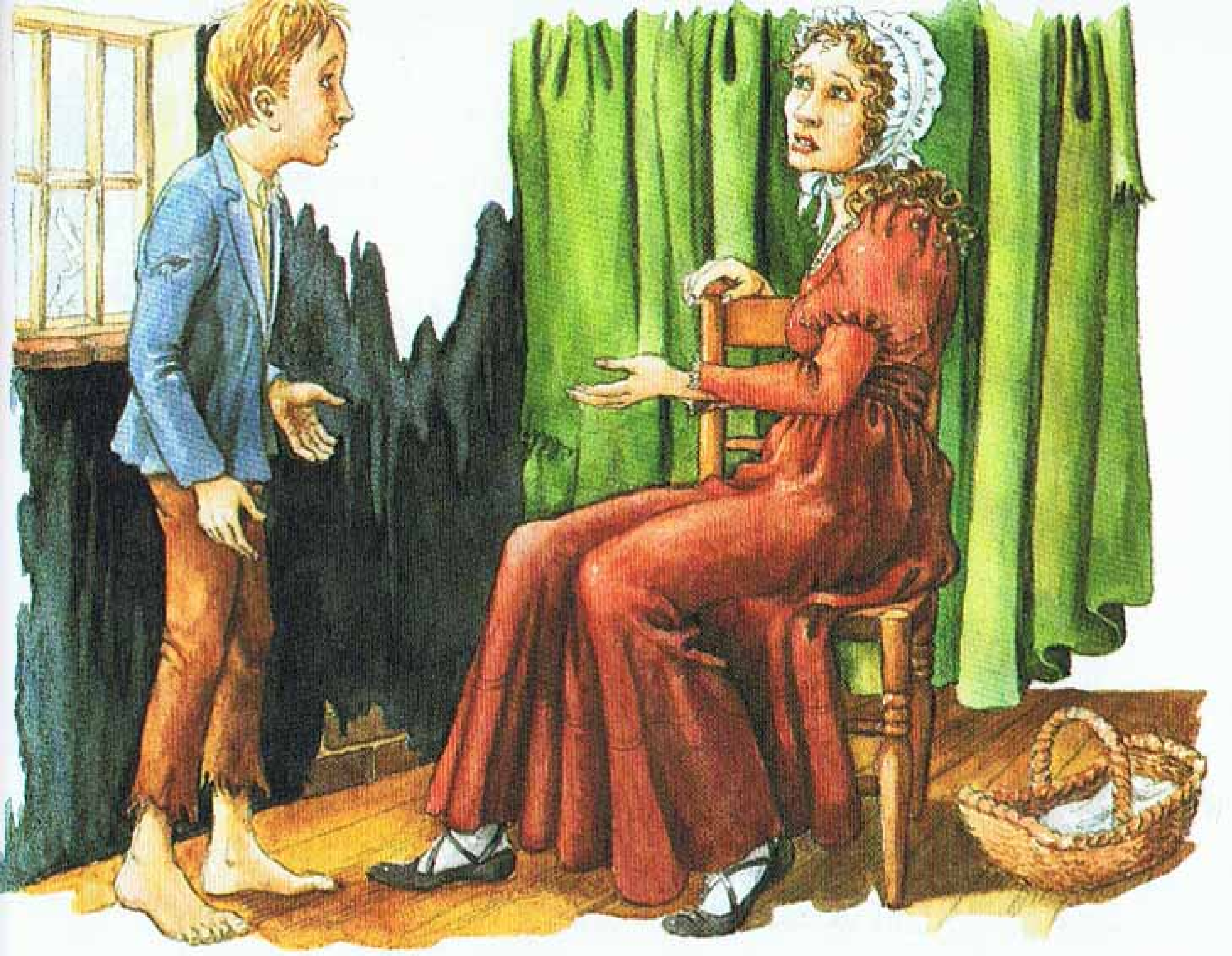
دَخَلَ فاغِن في صَباحِ اليَوْمِ التّالي عَلى أُولِڤَر وأَنَّبَهُ تَأْنيبًا شَديدًا عَلى ما اعْتَبَرَهُ جُحودًا مِنْهُ بِمُحاوَلَتِهِ الهَرَبَ مِنْ أَصْدِقاءَ أَنْقَذوهُ وقَدَّموا لَهُ المَأْوى والطَّعامَ حينَ كانَ فَريسَةً لِلتَّشَرُّدِ والجوعِ . وتَنَبَّأَ لِأُولِڤَر بِسوءِ المَصيرِ إنْ هُوَ أَفْشى سِرًّا مِنْ أَسْرارِ العِصابَةِ ، وحَكى لَهُ قِصَّةَ فَتًى وَشى بِالعِصابَةِ فحوكِمَ بِتُهْمَةِ السَّرِقَةِ وشُنِقَ .

بَعْدَ تِلْكَ الحادِثَةِ ، حُجِزَ أُولِڤَر في بَيْتِ فاغِن أَيّامًا ، تَحْتَ مُراقَبَةٍ شَديدَةٍ . إلى أَنْ رَأى فاغِن وبِل سايكْس أَنَّ لِأُولِڤَر دَوْرًا في عَمَلِيَّةٍ تَنْوي العِصابَةُ القِيامَ بِها .

كانَ أَحَدُ المُتَمَرِّسينَ بالسَّرِقَةِ مِنْ أَفْرادِ العِصابَةِ ، واسْمُهُ توبي كْراكِت ، يُخَطِّطُ لِلْقِيامِ بِسَرِقَةٍ كَبيرَةٍ يُشْرِفُ عَلَيْها بِل سايكْس . كانَ هَدَفُ العَمَلِيَّةِ بَيْتًا كَبيرًا في ضَواحي لَنْدَن يَحْتَوي عَلى مَجْموعَةٍ رائِعَةٍ مِنَ الأَواني والأَدَواتِ الفِضِّيَّةِ المُخْتَلِفَةِ . وكانَ بِل سايكْس مُتَلَهِّفًا لِلْحُصولِ عَلى تِلْكَ الفِضِّيّاتِ ، فَوَضَعَ خُطَّةً جَريئَةً لاقْتِحامِ المَنْزِلِ لَيْلًا .

كانَتِ الخُطَّةُ تَقْضي بِأَنْ يَتَسَلَّقَ بِل سايكْس وتوبي كْراكِت وأُولِڤَر سورَ الحَديقَةِ ، وأَنْ يَدْخُلوا المَنْزِلَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ أَحَدِ الأَبْوابِ الخَلْفِيَّةِ . وكانَ دَوْرُ أُولِڤَر يَنْحَصِرُ في التَّسَلُّلِ عَبْرَ نافِذَةٍ صَغيرَةٍ في الجِهَةِ الخَلْفِيَّةِ مِنَ المَنْزِلِ ، عَلى أَنْ يَتَّجِهَ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى البابِ فَيَفْتَحَهُ لِيَدْخُلَ مِنْهُ اللُّصّانِ .





أُرْسِلَتْ نانْسي في اليَوْمِ الَّذي تقَرَّرَ فيهِ تَنْفيذُ العَمَلِيَّةِ إلى بَيْتِ فاغِن لاصْطِحابِ أُولِڤَر إلى بَيْتِ بِل سايكْس الَّذي تقَرَّرَ أَنْ تَبْدأَ مِنْهُ العَمَلِيَّةُ. وكانَ فاغِن في هٰذِهِ الأَثْناءِ قَدْ هَيَّأَ أُولِڤَر للمُهِمَّةِ الَّتي أُعِدَّتْ لَهُ، وحَذَّرَهُ مِنْ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُطيعَ بِل سايكْس طاعَةً عَمْياءَ ودونَ أَدْنى تَرَدُّدٍ أَوْ مُناقَشَةٍ، وإلّا فإنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ انْتِقامَ سايكْس الوَحْشِيَّ. ودَخَلَتْ نانْسي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وقَدْ بَدا عَلَيْها الشُّحوبُ والاضْطِرابُ، ورَمَتْ نَفْسَها على كُرْسِيٍّ قَريبٍ مِنْ أُولِڤَر، فسأَلَها الفَتى عَمّا بِها، وعَمّا إذا كانَتْ مَريضَةً. فهَزَّتْ نانسي رَأْسَها، وتَمْتَمَتْ بِصَوْتٍ خَفيضٍ:

«لِيُسامِحْني اللهُ. هٰذا آخِرُ ما أَرْغَبُ في فِعْلِهِ.»

تَوَقَّفَتْ لَحْظَةً لِتَلْتَقِطَ أَنْفاسَها، وقَدِ اغْرَوْرَقَتْ عَيْناها بِالدُّموعِ، وقالَتْ هامِسَةً: «يا صَغيري، أَرْسَلَني بِل إلَيْكَ. تَعالَ مَعي. لا مَفَرَّ لَكَ مِنْ ذٰلِكَ.»

سَأَلَ أُولِڤَر: «ولِمَ يَطْلُبُني بِل؟»

أَجابَتْ نانْسي مُتَجَنِّبَةً عَيْنَيْ أُولِڤَر: «لِأَمْرٍ لا يُؤْذيكَ. عَلى الأَقَلِّ هٰذا ما أَرْجوهُ.»

أَدْرَكَ أُولِڤَر، ولِأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَنَّ لَهُ تَأْثيرًا عَلى عَواطِفِ تِلْكَ الصَّبِيَّةِ، فحاوَلَ اسْتِدْرارَ شَفَقَتِها عَلَيْهِ لِتُساعِدَهُ في الهَرَبِ. ولٰكِنَّ الفَتاةَ قالَتْ لَهُ:

«لَوْ كانَ بِإِمْكاني أَنْ أُساعِدَكَ يا صَغيري لَفَعَلْتُ. لٰكِنْ لا حَوْلَ لي ولا قُوَّةَ. ولَقَدْ قاسَيْتُ فِعْلًا مِنْ أَجْلِكَ الشَّيْءَ الكَثيرَ.»

قالَتْ ذٰلِكَ وهْيَ تَكْشِفُ عَنْ كَدَماتٍ وجُروحٍ في عُنُقِها وذِراعَيْها. ثُمَّ تابَعَتْ تَقولُ:

«خَيْرُ ما تَفْعَلُهُ يا صَغيري هُوَ أَنْ تَظَلَّ هادِئًا، وأَنْ تَفْعَلَ ما يَطْلُبُهُ بِل مِنْكَ، وإِلّا كانَتِ النَّتيجَةُ وَبالاً عَلَيْنا كِلَيْنا.»

أَخَذَتْ نانْسي الفَتى إِلى الشّارِعِ حَيْثُ كانَتْ في انْتِظارِهِما عَرَبَةٌ رَكِباها، فانْطَلَقَتْ بِهِما انْطِلاقًا سَريعًا إِلى مَنْزِلِ بِل سايكْس.

دَخَلَ أُولِڤَر ونانْسي المَنْزِلَ، فزَمْجَرَ بِل سايكْس مُخاطِبًا أُولِڤَر: «مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّكَ أَتَيْتَ دونَ إِثارَةِ المَتاعِبِ.»

ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ أَمامَ طاوِلَةٍ وُضِعَ عَلَيْها مُسَدَّسٌ مَحْشُوٌّ، وقالَ لَهُ:

«أَنْتَ تَعْرِفُ ما هٰذا، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟»

أَجابَ أُولِڤَر بِتَهَيُّبٍ: «نَعَمْ، أَعْرِفُ يا سَيِّدي.»

فتَناوَلَ بِل سايكْس المُسَدَّسَ ووَضَعَ فُوَّهَتَهُ في رَأْسِ الفَتى وقالَ لَهُ مُتَوَعِّدًا: «إِذا لَمْ تَفْعَلْ ما آمُرُكَ بِهِ فسَيَخْتَرِقُ الرَّصاصُ رَأْسَكَ، دونَ سابِقِ إِنْذارٍ.»

دَبَّ الذُّعْرُ في قَلْبِ أُولِڤَر فانْعَقَدَ لِسانُهُ، وأَبْدى خُضوعَهُ بِهَزَّةٍ حَزينَةٍ مِنْ رَأْسِهِ.

ونَحْوَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ وَصَلَ توبي كْراكِت. فجَلَسَ هُوَ وبِل يَتَهامَسانِ. ثُمَّ قاما يَلُفّانِ نَفْسَيْهِما بِثِيابٍ صوفِيَّةٍ ثَقيلَةٍ ويُغَطِّيانِ وَجْهَيْهِما بِلِفاعٍ صوفِيٍّ. ثُمَّ تَسَلَّحا بِمُسَدَّسَيْنِ إِضافِيَّيْنِ، وتَسَلَّلا خارِجَ المَنْزِلِ إِلى هَدَفِهِما ومَعَهُما الفَتى المَغْلوبُ على أَمْرِه.

وَقَفَ الرَّجُلانِ لَحظاتٍ يتأمَّلانِ المَنزِلَ المَقْصودَ ثُمَّ تَسلَّقا سورَ الحَديقَةِ ، ورَفَعا أُولِڤَر وراءَهُما . وتَسلَّلَ الثَّلاثَةُ بِحَذَرٍ شَديدٍ بَيْنَ الأَشْجارِ نَحْوَ النّافِذَةِ الخَلْفِيَّةِ الَّتي كانَ عَلى أُولِڤَر أَنْ يَدْخُلَها .

كانَ الفَتى يَرْتَعِشُ ذُعْرًا ، فَقَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ مُتَورِّطًا في سَرِقَةٍ مُسَلَّحَةٍ ورُبَّما انْتَهَتْ بِجَريمَةِ قَتْلٍ . فارْتَمى عَلى رُكْبَتَيْهِ فَوْقَ العُشْبِ المُبْتَلِّ ، وتَوسَّلَ إِلى الرَّجُلَيْنِ قائلًا : «أَسْتَحْلِفُكُما بِاللهِ أَنْ تَتْرُكاني . لَنْ أَقْتَرِبَ مِنْ لَنْدن بَعْدَ اليَوْمِ – المَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ ذٰلِكَ .»

راحَ سايكْس يَنْتَفِضُ غَضَبًا ، وقالَ بِصَوْتٍ كَفَحيحِ الأَفْعى : «انْهَضْ ، أَيُّها الجُرَذُ الحَقيرُ .» ثُمَّ تَناوَلَ مُسَدَّسَهُ وقالَ بِوَحْشِيَّةٍ : «انْهَضْ ، وإِلّا فَجَّرْتُ دِماغَكَ ، وجَعَلْتُهُ يَتَطايَرُ فَوْقَ الحَشيشِ شَظايا .» وأَخَذَ يَجُرُّ أُولِڤَر نَحْوَ النّافِذَةِ الخَلْفِيَّةِ. ثُمَّ قالَ مُتَوَعِّدًا :

«سَأُدْخِلُكَ عَبْرَ النّافِذَةِ ، وعَلَيْكَ أَنْ تَذْهَبَ مُباشَرَةً إِلى البابِ لِتَرْفَعَ مِزْلاجَهُ مِنَ الدّاخِلِ . إِلَيْكَ قِنْديلًا يُساعِدُكَ في تَبَيُّنِ طَريقِكَ .»

كانَ أُولِڤَر ، بَعْدَ لَحَظاتٍ ، يَنْحَني أَمامَ النّافِذَةِ . فَرَفَعَهُ سايكْس وأَدْخَلَهُ عَبْرَ النّافِذَةِ وأَنْزَلَهُ بِهُدوءٍ .

راحَ الفَتى يَتَلَمَّسُ طَريقَهُ داخِلَ المَنْزِلِ ، وكَأَنَّهُ يَعيشُ كابوسًا مُخيفًا . ولَمْ يَكُنْ يُراوِدُهُ إِلّا فِكْرَةٌ واحِدَةٌ ، آلى عَلى نَفْسِهِ أَنْ يُنَفِّذَها حَتّى ولَوْ أَدّى ذٰلِكَ إِلى مَوْتِهِ بِرَصاصِ بِل سايكْس الَّذي كانَ يُراقِبُ حَرَكاتِهِ وسَكَناتِهِ . كانَ يَنْوي أَنْ يَنْدَفِعَ لِارْتِقاءِ دَرَجاتِ السُّلَّمِ الدّاخِلِيِّ لِتَحْذيرِ سُكّانِ المَنْزِلِ مِنَ اللُّصوصِ .

وبَيْنَما كانَ الفَتى في وَسَطِ المَمَرِّ سَمِعَ ضَجَّةً غَيْرَ بَعيدَةٍ . سَمِعَ بِل الضَّجَّةَ أَيْضًا ، فَأَرْسَلَ صَوْتَهُ الَّذي يُشْبِهُ الفَحيحَ قائلًا : «ارْجِعْ . ارْجِعْ حالًا .»

حارَ أُولِڤَر فيما يَفْعَلُ ، فَرَمى المِصْباحَ . واسْتَطاعَ أَنْ يُمَيِّزَ في الظَّلامِ أَشْباحًا تَتَعَثَّرُ نازِلَةً الدَّرَجَ . ثُمَّ تَعالَتْ أَصْواتٌ صاخِبَةٌ غاضِبَةٌ مُلْتَهِبَةٌ ، ثُمَّ دَوّى صَوْتُ رَصاصَةٍ في أَديمِ اللَّيْلِ . تَرَنَّحَ أُولِڤَر ، وقَدْ أُصيبَ في ذِراعِهِ ، وسَقَطَ أَرْضًا .





اِنْحَنى سايكْس في وَسَطِ الدُّخانِ والفَوْضى الَّتي دَبَّتْ في المكانِ عبْرَ النّافِذةِ ، ومدَّ يَدَيْهِ مُحاوِلًا الوُصولَ إلى أُولِڤَر. اِسْتَطاعَ ، بَعْدَ جَهْدٍ ، الوُصولَ إلَيْهِ فأَمْسَكَهُ وجَرَّهُ خارِجَ النّافِذَةِ ، وحَمَلَهُ بِمُساعَدةِ توبي كْراكِت. أَخْرَجَ الرَّجُلانِ الفَتى الجَريحَ مِنَ الحديقةِ وحاوَلا جاهِدَيْنِ حَمْلَهُ عَبْرَ الحُقولِ المُجاوِرَةِ. لٰكنَّ ثَلاثَةَ رِجالٍ خَرَجوا مِنَ المَنْزِلِ في إِثْرِهِمْ يُطارِدونَهُمْ بِمُساعَدةِ بِضْعَةِ كِلابٍ شَرِسَةٍ.

فقالَ توبي كْراكِت وهْوَ يُحاوِلُ الْتِقاطَ أَنْفاسِهِ : «اِنْتَهى أَمْرُنا يا بِل. إِنَّهُمْ يَقْتَرِبونَ مِنّا. فلْنَتَخَلَّصْ مِنَ الفَتى ونَنْجُ بِأَنْفُسِنا.»

وهٰكَذا أُلْقِيَ أُولِڤَر في حُفْرةٍ جانِبِيَّةٍ ، وغُطِّيَ على عَجَلٍ بِمِعْطَفٍ. وكانَ المِسْكينُ في أَثْناءِ ذٰلِكَ كُلِّهِ غائِبًا عَنِ الوَعْيِ بِفِعْلِ الصَّدْمَةِ وما فَقَدَهُ مِنْ دَمٍ.

اتَّفقَ في تِلكَ اللَّحظةِ أنَّ المُطارِدينَ كَفّوا عَنْ مُطارَدَتِهِمْ وأوْقفوا كِلابَهُمْ. وكانَ قائدُ المَجْموعَةِ المُطارِدَةِ، السَّيِّدُ غايلز، رَجُلًا طَويلًا يَعْمَلُ رئيسًا لِلْخَدَمِ في المَنْزِلِ الَّذي تَعَرَّضَ لِمُحاوَلَةِ السَّطْوِ. واشْتَرَكَ في المُطارَدَةِ السَّيِّدُ بْريتلز، وكانَ رَجلًا سَمينًا قَصيرًا، يَعْمَلُ خادِمًا في المَنْزِلِ نَفْسِهِ، وسمْكَرِيٌّ جَوّالٌ اتَّفقَ أنَّهُ كانَ بالمَنْزِلِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. أجْرى الثَّلاثَةُ مُشاوَرَةً قَصيرَةً انْتَهَتْ بِاتِّخاذِهِمْ، راضينَ، قَرارًا بِالكَفِّ عَنِ المُطارَدَةِ.

اِسْتَفاقَ أوليفَر في صَباحِ اليَوْمِ التّالي مِنْ إغْمائه، وَسْطَ نَوْبَةٍ قاسِيَةٍ مِنَ الارْتِعاشِ بَعْدَ أنْ تَسَرَّبَتْ رُطوبَةُ الجَوِّ والأَرْضِ إلى عِظامِهِ. راح يَئِنُّ ألَمًا ويُحاوِلُ جاهِدًا الخُروجَ مِنَ الحُفْرَةِ الَّتي وَجَدَ نَفْسَهُ فيها. أخيرًا تَمكَّنَ مِنَ الزَّحْفِ خارِجَها، وراحَ يَتَرَنَّحُ بَحْثًا عَمَّنْ يُساعِدُهُ. لَمْ يَجِدْ أمامَهُ غَيْرَ المَنْزِلِ الَّذي جرَتْ فيهِ مُحاوَلَةُ السَّطْوِ، فاتَّجَهَ إلَيْهِ مُتَعَثِّرًا وقَرَعَ البابَ طَلَبًا لِلْعَوْنِ، دونَ أنْ يَعْلَمَ أنَّهُ يَعودُ إلى المكانِ الَّذي كانَ تَسَلَّلَ إلَيْهِ لَيْلًا.

واتَّفقَ أنَّ السَّيِّدَ غايلز والرَّجُلَيْنِ اللَّذيْنِ أعاناهُ في المُطارَدَةِ كانوا يَتناوَلونَ في تِلْكَ السّاعَةِ كوبًا مِنَ الشّاي في جَناحِ الخَدَمِ، يَقُصّونَ أنْباءَ مُغامَرَتِهِم الجَريئَةِ عَلى الخادِماتِ المَذْعوراتِ. فقامَ السَّيِّدُ غايلز إلى البابِ حانِقًا وفتَحَهُ فَتْحَةً ضَيِّقَةً لِيَرى مَنِ الطّارِقُ.

صاحَ فَجْأَةً: «إنَّهُ الصَّبيُّ!» وراحَ يَجُرُّ أوليفَر المُنْهَكَ البائسَ إلى داخِلِ القاعَةِ، ويُنادي سَيِّدَتَهُ الَّتي كانَتْ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ قائلاً: «هٰذا الوَلَدُ هُوَ أحَدُ اللُّصوصِ يا سَيِّدةُ مايْلي. أنا مُتَأَكِّدٌ مِنْ ذٰلِكَ. إنَّهُ هُوَ يا سَيِّدَتي.»

سَمِعَتْ روز، ابْنَةُ أخي السَّيِّدةِ مايْلي، وهيَ صَبيَّةٌ جَميلةٌ في السابِعَةَ عَشْرَةَ من عُمرِها، صِياحَ رئيسِ الخَدَمِ، فأسْرَعَتْ إلى الجانِبِ الأعْلى مِنَ الدَّرَجِ لِتَسْتَطْلِعَ الأمْرَ. صاحَ رئيسُ الخَدَمِ حينَ رآها:

«إنَّهُ جَريحٌ يا آنِسَةُ. أنا أصَبْتُهُ أمْسِ، وها هُوَ الآنَ بَيْنَ يَدَيَّ.»

قالَتْ روز بِلَهْجةٍ آمِرةٍ: «اِحْمِلْهُ إلى غُرْفَتِكَ يا غايلز. وأَرْسِلْ بْريتلز في الحالِ لِيَسْتَدْعِيَ طَبيبًا.»

كانَ تْشارلي بيتْس وثَعْلَبَة والعَجوزُ، في تِلْكَ الأَثْناءِ، يَلْعَبونَ الوَرَقَ في مَنزِلِ فاغِن. ففَاجأَهُمْ رُجوعُ توبي كْراكِت في ذٰلِكَ الوَقْتِ وَحيدًا.

صاحَ فاغِن فَزِعًا: «أَيْنَ بِل والفَتى؟»

أَجابَ توبي: «فشِلْنا. الفَتى أُصيبَ بِرَصاصَةٍ. وطارَدَنا أَهْلُ المَنْزِلِ بِالسِّلاحِ والكِلابِ. ولَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ نَتْرُكَ الفَتى في حُفْرَةٍ وأَنْ نَنْجُوَ بِأَنْفُسِنا. لا أَعْرِفُ مَصيرَ الفَتى، أَحَيٌّ هُوَ أَمْ مَيِّتٌ. كَما لا أَعْرِفُ أَيْنَ ذَهَبَ بِل.»

لَمْ يَعُدْ فاغِن بِحاجَةٍ إلى أَنْ يَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا سَمِعَ. اِنْدَفَعَ في ذُعْرٍ خارِجًا مِنَ البَيْتِ، وقَدْ دَخَلَ في رَوْعِهِ أَنَّ كارِثَةً سَتَحِلُّ بِهِ. اِتَّجَهَ فَوْرًا إلى نُزُلِ «المُقْعَدينَ الثَّلاثَة»، الكائِنِ في زُقاقٍ وَسِخٍ تُحيطُ بِهِ بُيوتٌ عَفِنَةٌ ودَكاكينُ حافِلَةٌ بِالبَضائِعِ المَسْروقَةِ الَّتي تُباعُ بِأَسْعارٍ رَخيصَةٍ. في تِلْكَ النّاحِيَةِ كانَتْ تُمارَسُ أَنْواعُ الأَعْمالِ غَيْرِ المَشْروعَةِ كُلُّها. وكانَ مَعْروفًا عَنْ نُزُلِ «المُقْعَدينَ الثَّلاثَة» أَنَّهُ مُلْتَقى الأَشْرارِ عَلى اخْتِلافِ مَشارِبِهِمْ وأَنْواعِهِمْ. في هٰذا المَكانِ أَسْرَعَ فاغِن إلى صاحِبِ النُّزُلِ، وهَمَسَ في أُذُنِهِ بِعَصَبِيَّةٍ وقَلَقٍ:

«أَهُوَ هُنا؟»

قالَ صاحِبُ النُّزُلِ مُسْتَفْسِرًا: «أَتَقْصِدُ مونكْس؟»

عادَ فاغِن إلى فَحيحِهِ يَقولُ: «لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ. أَخْبِرْهُ أَنّي جِئْتُ لِمُقابَلَتِهِ، وأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَني اللَّيْلَةَ لِأَمْرٍ هامٍّ جِدًّا.»

ثُمَّ عادَ فاغِن مُسْرِعًا إلى بَيْتِهِ. وهُناكَ أَمامَ البَوّابَةِ، وَجَدَ مونكْس في انْتِظارِهِ. دَخَلَ الرَّجُلانِ مَعًا، وراحا يَتَحَدَّثانِ بِصَوْتٍ خَفيضٍ قَلِقٍ. قالَ مونكْس:

«أَسَأْتُمْ تَخْطيطَ عَمَلِيَّتِكُمْ. كانَ عَلَيْكُمْ أَلّا تُخاطِروا بِالفَتى بِهٰذِهِ السُّرْعَةِ. لَوْ أَنَّكُمْ دَرَّبْتُموهُ تَدْريبًا حَسَنًا لِعامٍ أَوْ بَعْضِ عامٍ، حَتّى يُصْبِحَ فَتًى بارِعًا كَغَيْرِهِ مِنَ الفِتْيانِ، لَكانَ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ يُلْقى القَبْضُ عَلَيْهِ مُتَلَبِّسًا بِجَريمَتِهِ ويُحاكَمَ ويُنْفى إلى المُسْتَعْمَراتِ. إِنّي أَدْفَعُ لَكَ بِسَخاءٍ كَيْ تُنْجِزَ لي هٰذا الأَمْرَ.»

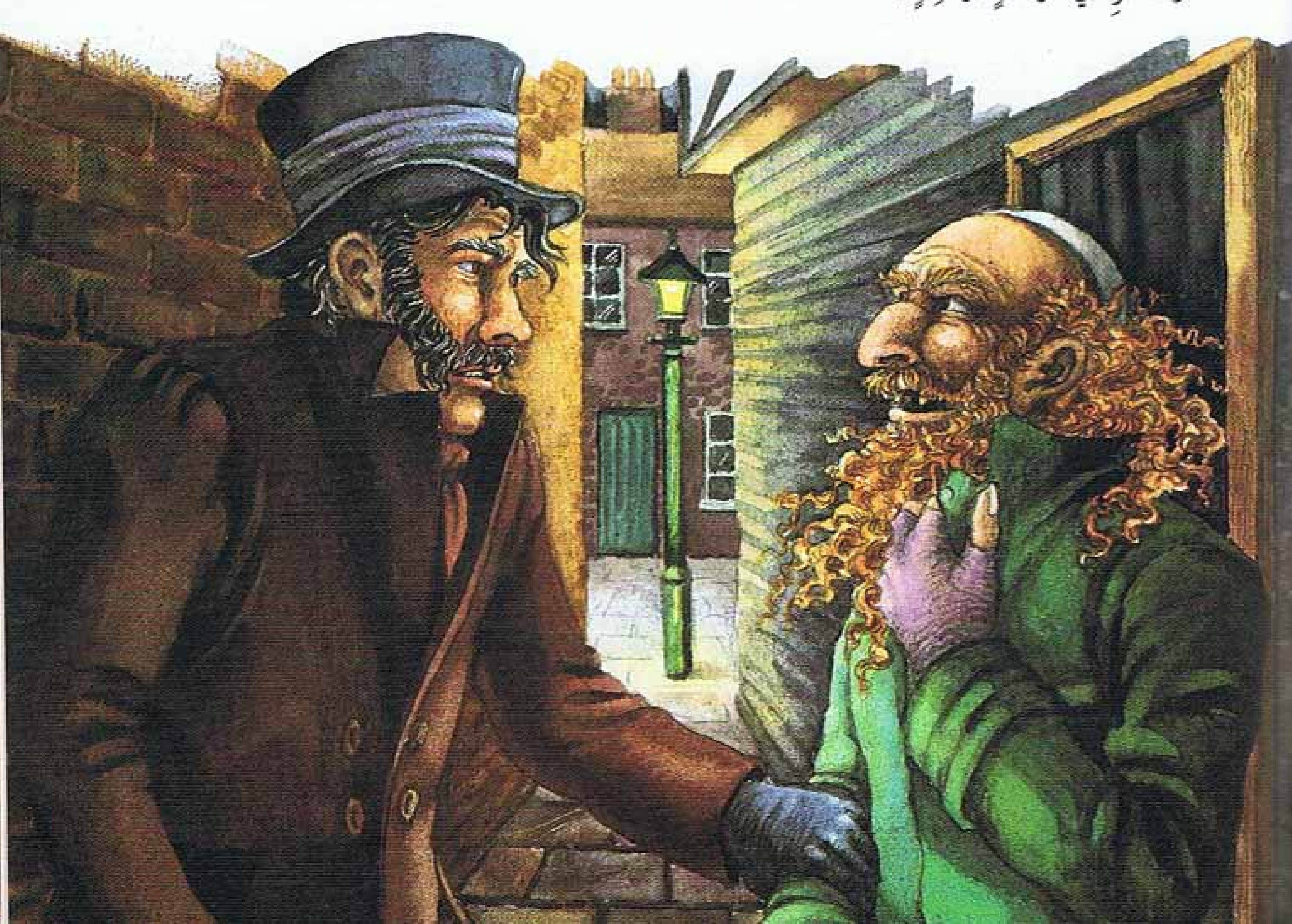
أجابَ فاغِن : «أَعْرِفُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَضَعَ يدكَ عَلَيْه وأَنْ تُحَطِّمَهُ . لٰكِنَّ الأَمْرَ لَيْسَ سَهْلاً ، فهْوَ فَتًى غَيْرُ الفِتْيانِ. عِنْدَما حاوَلْتُ تَجْرِبَتَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ كادَتِ التَّجْرِبةُ أَنْ تَتَسَبَّبَ بِنِهايَتِنا جَميعًا. أَمْسَكَتْ بِهِ الشُّرْطَةُ ثُمَّ أَطْلَقَتْ فيما بَعْدُ سَراحَهُ. ثُمَّ اخْتَفى. فقَلِقْنا ، صَدِّقْني أَنَّنا قَلِقْنا. وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّنا أَنْ عَثَرَتْ عَلَيْهِ الفَتاةُ وأَعادَتْهُ. لٰكِنَّها بَدَأَتْ ، وذا شَيْءٌ عَجيبٌ ، تَعْطِفُ عَلَيْهِ.»

تَمْتَمَ مونكْس بِوَحْشِيَّةٍ : «أُقْتُلِ الفَتاةَ.»

رَدَّ فاغِن بِسُرْعَةٍ : «لا ، لا ، يا صَديقِي العَزيزَ. لا نَقْدِرُ عَلى ذٰلِكَ في الوَقْتِ الحاضِرِ. وأَحْسَبُ أَنَّ الفَتى ، عَلى كُلِّ حالٍ ، مَيِّتٌ ، بَعْدَ الجُرْحِ البَليغِ الَّذي أُصيبَ بِهِ.»

شَعَرَ مونكْس نَفْسُهُ بِالذُّعْرِ ، فصاحَ : «لا ضِلْعَ لي في ذٰلِكَ. لا أُريدُ سَفْكَ دَمِهِ. لا ضِلْعَ لي في ذٰلِكَ.»

وهٰكَذا تَجادَلَ الرَّجُلانِ طَويلًا وقَدْ بَدَتْ عَلى وَجْهَيْهِما عَلاماتُ القَسْوَةِ والوَحْشِيَّةِ والذُّعْرِ في وَقْتٍ واحِدٍ.





كانَ الطَّبيبُ ، في هٰذِهِ الأَثْناءِ ، قَدْ وَصَلَ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ مايْلي ، فاسْتَقْبَلَتْهُ هِيَ وابْنَةُ أَخيها روز اسْتِقبالًا حارًّا . وكانَ الدُّكْتورُ لوزْبرْن مَعْروفًا في أَنْحاءِ المُقاطَعَةِ بِلُطْفِهِ وتَعاطُفِهِ مَعَ النّاسِ وحَماسَتِهِ الدّائِمَةِ في مُساعَدَةِ المَرْضى . وقَدْ صَعِدَ فَوْرَ وُصولِهِ إلى غُرْفَةِ السَّيِّدِ غايلْز لِمُعايَنَةِ جِراحِ اللِّصِّ . كانَ قَدْ دَخَلَ في رَوْعِهِ أَنَّهُ سَيَرى لِصًّا شِرِّيرًا قاسِيًا جافِيًا نالَ جَزاءَهُ . لٰكِنَّهُ سُرْعانَ ما خَرَجَ مِنَ الغُرْفَةِ عَلى عَجَلٍ ونَزَلَ إلى السَّيِّدَةِ مايْلي وروز وأَصَرَّ عَلى أَنْ تُرافِقاهُ لِتَرَيا بِنَفْسَيْهِما هَيْئَةَ ذٰلِكَ المُجْرِمِ .

لَشَدَّ ما أَدْهَشَهُما أَنْ يَرَيا لا وَجْهَ لِصٍّ بَشِعٍ ناطِقًا بِالشَّرِّ ، بَلْ وَجْهَ طِفْلٍ رَقيقٍ هادِئٍ مُثْقَلٍ بِالتَّعَبِ والأَلَمِ ، يَنامُ نَوْمًا حَزينًا عَميقًا . وَإِذْ وَقَفَتْ روز تَنْظُرُ إِلَيْهِ أَحَسَّتْ بِعَطْفٍ شَديدٍ وشَفَقَةٍ طاغِيَةٍ ، حَتّى إِنَّ دَمْعَةً انْحَدَرَتْ مِنْ عَيْنَيْها فَوَقَعَتْ عَلى جَبينِ أُولِفَر ، وابْتَسَمَ الفَتى ، وهْوَ نائِمٌ ، وكَأَنَّما مَرَّ في خَيالِهِ حُلْمٌ بَديعٌ مِنْ أَحْلامِ الحُبِّ والحَنانِ .

قالَتْ روز بِصَوْتٍ عَطوفٍ : «أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِثْلُ هٰذا الطِّفْلِ الرَّقيقِ مُخَيَّرًا في سُلوكِهِ طَريقَ الشَّرِّ؟ أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَنانَ الأُمِّ ، ولا البَيْتَ المُحِبَّ الَّذي يَجِدُ فيهِ الرّاحَةَ والأَمانَ .»

كانَ أُولِڤَر مِنَ القُوَّةِ في المَساءِ بِحَيْثُ قَدَرَ على أَنْ يَسْرُدَ لِلدُّكْتورِ لوزْبِرْن قِصَّةَ طُفولَتِهِ كُلَّها. وخَطَرَتْ لِلطَّبيبِ، فَجْأَةً، فِكْرَةٌ يُساعِدُ بِها الفتى، بَعْدَ أَنْ كانَتِ السَّيِّدَةُ مايْلي وَابْنَةُ أَخيها روز قَدْ أَلَحَّتا عَلَيْهِ أَنْ يُساعِدَهُ بِكُلِّ وسيلَةٍ مُمْكِنَةٍ. كانَ عَلَيْهِ، مَهْما بَلَغَ الثَّمَنُ، أَنْ يُبْعِدَ عَنْهُ تُهْمَةَ السَّرِقَةِ. فنزَلَ إلى الطَّابِقِ السُّفْلِيِّ لِيَتحدَّثَ إلى السَّيِّدِ غايلز والسَّيِّدِ بْرِيتِلْز.

رَأى السَّيِّدُ غايلز الطَّبيبَ يَدْخُلُ، فَقالَ لَهُ: «كَيْفَ هُوَ الجَريحُ الآنَ؟»

أَجابَ الدُّكْتورُ لوزْبِرْن وقَدْ عَلا وَجْهَهُ التَّجهُّمُ: «إِنَّهُ بَيْنَ بَيْنَ. لٰكِنْ أَخْشى أَنَّكُمْ أَوْقَعْتُمْ أَنْفُسَكُمْ في وَرْطَةٍ، يا سَيِّدُ غايلز.»

أَسْرَعَ السَّيِّدُ غايلز يَسْأَلُ بِلَهْجَةٍ تَنِمُّ عَنْ ذُعْرٍ: «هَلْ حالُهُ خَطِرَةٌ؟»

أَجابَ الطبيبُ: «لا، لا. لَسْتُ قَلِقًا مِنْ هٰذِهِ النَّاحِيَةِ. المُشْكِلَةُ هِيَ هَلْ أَنْتَ والسَّيِّدُ بْرِيتِلْز مُسْتَعِدّانِ أَنْ تُقْسِما إِنَّ الفَتى الَّذي مَعَنا الآنَ هُوَ الفتى نَفْسُهُ الَّذي أُدْخِلَ عَبْرَ النّافِذَةِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ؟»

بَدا الذُّعْرُ في عَيْنَيْ غايلْز وبْرِيتِلْز وراحَ الواحِدُ مِنْهُما يُحَدِّقُ بِالآخَرِ.

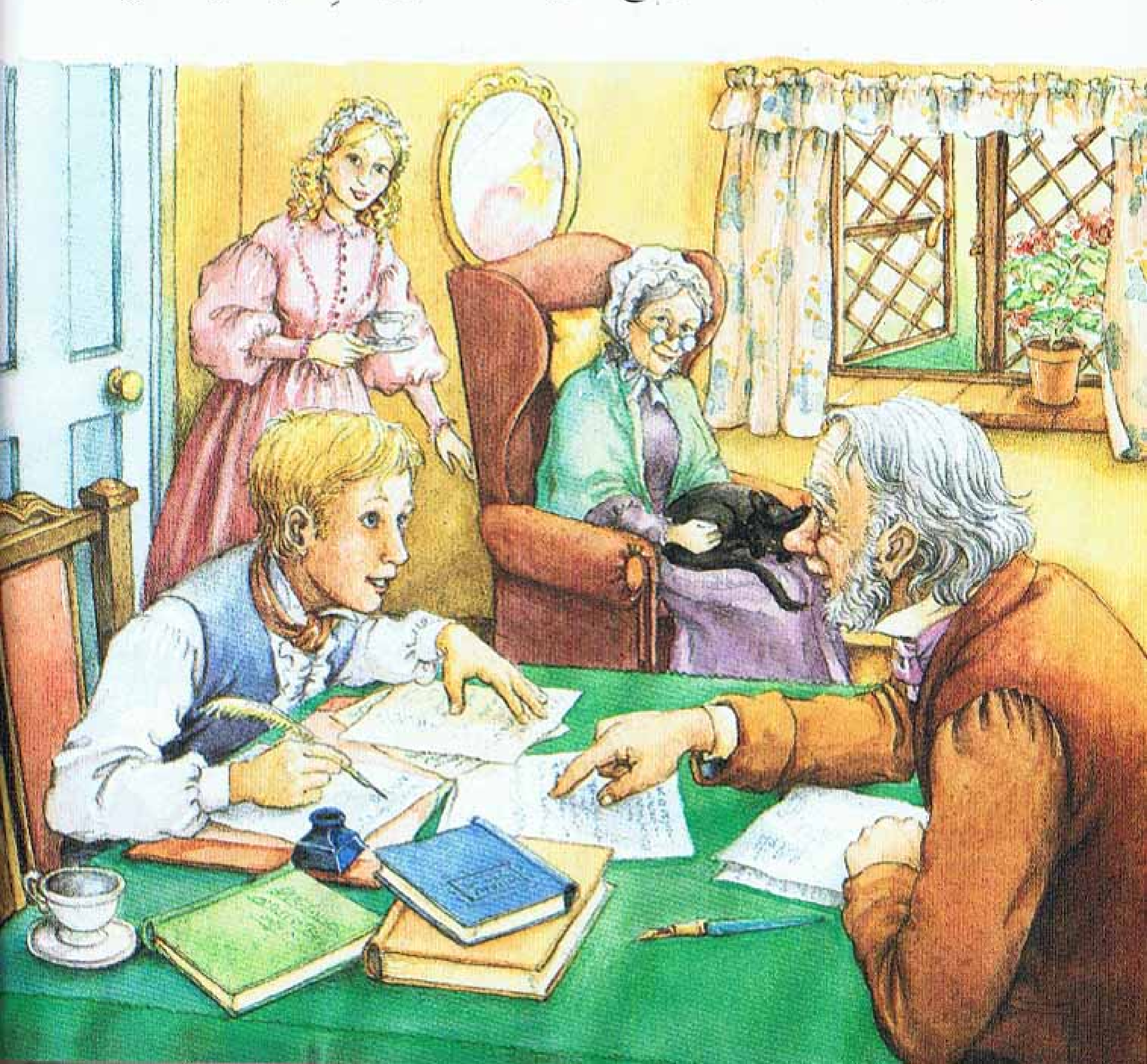
أَدْرَكَ الطَّبيبُ نَجاحَ خُطَّتِهِ، فتابَعَ قائلًا: «أَيَّ بُرْهانٍ تَمْلِكانِ عَلى أَنَّ هٰذا الفَتى وذاكَ شَخْصٌ واحِدٌ؟ يَبْدو لي أَنَّ الفَتى أُصيبَ عَرَضًا في الغابَةِ بِطَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُقِيَّةِ صَيْدٍ، وأَنَّهُ جاهَدَ لِلْوُصولِ إلى هُنا طَلَبًا لِلْإِسْعافِ، فبادَرْتُما إلى الانْقِضاضِ عَلَيْهِ وحَجْزِهِ واتِّهامِهِ بِالسَّرِقَةِ.»

راحَ الخادِمانِ البائسانِ يَرْتَعِشانِ فَزَعًا، وبِخاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ وَصَلَ رِجالُ الشُّرْطَةِ وأَخَذوا يَسْتَجْوِبونَهُما حَوْلَ تَفاصيلِ ما حَدَثَ. وكانَ لِنَظَرِيَّةِ الدُّكْتورِ لوزْبِرن أَثَرٌ أَكيدٌ عَلى رِجالِ الشُّرْطَةِ، فخَرَجوا أَخيرًا مِنَ البَيْتِ وهُمْ مُقْتَنِعونَ أَنَّ السَّيِّدَ غايلْز والسَّيِّدَ بْرِيتِلْز قَدِ ارْتَكَبا غَلْطَةً حَمْقاءَ، وأَنَّهُ لَيْسَ لِأُولِڤَر عَلاقَةٌ بِاللُّصوصِ. وتُرِكَ الفتى آمِنًا في رِعايَةِ السَّيِّدَةِ مايْلي وَروز والطَّبيبِ الطَّيِّبِ القَلْبِ ومَحَبَّتِهِمْ.

تَحَمَّلَ أُولِڤَر آلامَ جُرْحِهِ وآثارَ الحُمّى الخطِرَةِ الَّتي أَصابَتْهُ بِشَجاعَةٍ وتَفاؤُلٍ. فلَقَدْ ترَكَ الحَنانُ الَّذي كانَ يَتَلَقّاهُ مِن روز والسَّيِّدَةِ مايْلي أَثَرًا عَميقًا في نَفْسِهِ. قالَ مَرَّةً لِروز: «لَيْتَني أَقْدِرُ عَلى العَمَلِ فأَرُدَّ لكِ بَعْضَ دَيْنِكِ عَلَيَّ.»

أجابَت روز: «سَيَكونُ لكَ ذٰلِكَ. سنأْخُذُكَ مَعَنا إلى بيْتِنا الرّيفِيِّ لِقَضاءِ إجازَةٍ. وسُرْعانَ ما تَتَعافى هُناكَ بِفَضْلِ الرّيفِ الهادِئِ والهَواءِ النَّقِيِّ ومَفاتِنِ الرَّبيعِ.»

فُتِنَ أُولِڤَر بِجَمالِ الرّيفِ والبَيْتِ الرّيفيِّ. وكانَتِ النُّزْهاتُ الرّيفِيَّةُ الَّتي يَقومُ بِها مَعَ روز والسَّيِّدَةِ مايْلي، والأَحاديثُ الَّتي يَتَبادَلُها مَعَهُما، تُسْعِدُهُ كَثيرًا. وأَخَذَ يَتَلَقّى دُروسًا عَلى يَدِ رَجُلٍ عَجوزٍ وَدودٍ. وهٰكَذا مَرَّتْ عَلى أُولِڤَر شُهورٌ مِنَ السَّعادَةِ الغامِرَةِ، أَحَسَّ خِلالَها، ولِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتِهِ، أَنَّهُ يَعيشُ مَعَ أُسْرَةٍ، وأَنَّهُ مَحْبوبٌ جِدًّا في هٰذِهِ الأُسْرَةِ.



نَعودُ هُنا إلى البَلْدةِ الَّتي وُلِدَ فيها أوليڤَر، وَإلى صاحِبِنا القَديمِ السَّيِّدِ بَمْبل. فبَيْنَما كانَ السَّيِّدُ بَمْبل يَتَناوَلُ بَعْضَ المُرَطِّباتِ في مَقْهًى مَحَلِّيٍّ صَغيرٍ جاءَهُ رَجُلٌ غَريبٌ غامِضُ السِّماتِ، وزَعَمَ لَهُ أنَّهُ أتى المُقاطَعَةَ لِلتَّعَرُّفِ إلَيْهِ. قالَ:

«أنْتَ المَسْؤولُ عَنِ المَلْجَإِ في هٰذِهِ البَلْدَةِ، ألَيْسَ كَذٰلِكَ؟»

رَدَّ السَّيِّدُ بَمْبل بِجِدِّيَّةٍ وعَظَمَةٍ: «نَعَمْ، أنا هُوَ.» وقَدْ أفْرَحَهُ أنْ يَكونَ أمْرُ تَرْقِيَتِهِ إلى رِئاسَةِ المَلْجَإِ قَدْ شاعَ بَيْنَ النّاسِ.

قالَ الغَريبُ الغامِضُ: «فأنا أُريدُ مِنْكَ، إذًا، بَعْضَ المَعْلوماتِ.» ثُمَّ أظْهَرَ ما لِطَلَبِهِ مِنْ أهَمِّيَّةٍ بِأنْ رَمى عَلى الطّاوِلَةِ، أمامَ السَّيِّدِ بَمْبل الذّاهِلِ، جُنَيْهَيْنِ ذَهَبِيَّيْنِ.

اِنْتَظَرَ الغَريبُ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ: «عُدْ بِالذّاكِرَةِ إلى اثْنَيْ عَشَرَ عامًا خَلَتْ. في ذٰلِكَ الوَقْتِ وُلِدَ في المَلْجَإِ طِفْلٌ ضَعيفٌ شاحِبٌ، أُرْسِلَ فيما بَعْدُ لِيَعْمَلَ عِنْدَ صانِعِ تَوابيتَ، ثُمَّ فَرَّ مِنْ هُناكَ إلى لَنْدَن.»

هَتَفَ السَّيِّدُ بَمْبل قائلاً: «أنْتَ تَقْصِدُ أوليڤَر تْوِسْت، ذٰلِكَ الوَغْدَ العَنيدَ، الَّذي فاقَ كُلَّ الأوْغادِ جُحودًا.»

قالَ الغَريبُ: «لا يَعْنيني أمْرُهُ في الوَقْتِ الحاضِرِ. أُريدُ، إنْ أمْكَنَ، مُقابَلَةَ المَرْأةِ الَّتي قامَتْ عَلى العِنايَةِ بِأُمِّهِ.»

قالَ السَّيِّدُ بَمْبل: «آهِ. لَقَدْ ماتَتْ في الشِّتاءِ المُنْصَرِمِ. لٰكِنِّي أدُلُّكَ عَلى امْرَأةٍ قامَتْ عَلى العِنايَةِ بِالعَجوزِ قُبَيْلَ مَوْتِها. إنَّها، في الواقِعِ، زَوْجَتي.»

أسْرَعَ الغَريبُ يَقولُ بِلَهْفَةٍ: «مَتى أراها في لَنْدَن؟»

أجابَ السَّيِّدُ بَمْبل: «غَدًا مَساءً.»

وهٰكَذا اتُّفِقَ عَلى أنْ تَكونَ تِلْكَ المُقابَلَةُ في السّاعَةِ التّاسِعَةِ مِنْ مَساءِ اليَوْمِ التّالي، وفي مَكانٍ مُنْعَزِلٍ يَقَعُ عَلى حافَةِ النَّهْرِ.

وقَبْلَ أنْ يَفْتَرِقَ الرَّجُلانِ قالَ السَّيِّدُ بَمْبل: «عَمَّنْ نَسْأَلُ في لَنْدَن؟»

أجابَ الرَّجُلُ وهُوَ يُغادِرُ المَكانَ: «اِسْأَلْ عَنْ مونكْس.»

اِلْتقى السَّيِّدُ بَمْبل وزَوْجَتُهُ في مَساءِ اليَوْمِ التّالي السَّيِّدَ مونكْس ، كما جَرى الاتِّفاقُ . وكانَ مَكانُ الْتِقائِهِمْ مَنْزِلًا مَهْجورًا مُتَصَدِّعًا في أَرْضٍ مُسْتَنْقَعِيَّةٍ . قادَهُما مونكْس فَوْقَ دَرَجٍ مُخَلَّعٍ إلى غُرْفَةٍ عُلْوِيَّةٍ موحِشَةٍ مَهْجورَةٍ ، لَيْسَ فيها مِنَ الأَثاثِ إلّا طاوِلَةٌ مُخَلَّعَةٌ وثَلاثُ كَراسيَّ قَديمَةٍ .

قالَ مونكْس بِعَصَبِيَّةٍ : «لِنُباشِرِ الآنَ ما جِئْنا مِنْ أَجْلِهِ . لَقَدْ زَوَّدَتْكِ المُمَرِّضَةُ العَجوزُ ، وهْيَ عَلى فِراشِ المَوْتِ ، بِمَعْلوماتٍ عَنْ..»

قاطَعَتْهُ السَّيِّدَةُ بَمْبل قائِلَةً : «نَعَمْ . لَقَدْ ذَكَرَتْ لي أُمورًا تَتَعَلَّقُ بِأُمِّ الصَّبِيِّ . إِنْ دَفَعْتَ لي خَمْسَةً وَعِشْرينَ جُنَيْهًا أَخْبَرْتُكَ بِكُلِّ ما أَعْرِفُ .»

أَخْرَجَ السَّيِّدُ مونكْس ، دونَ تَرَدُّدٍ ، خَمْسَةً وعِشْرينَ جُنَيْهًا وأَعْطاها لِلْمَرْأَةِ .

بَدا البِشْرُ على وَجْهِ السَّيِّدَةِ بَمْبل وقالَتْ : «أَخْبَرَتْني المُمَرِّضَةُ العَجوزُ ، وهْيَ عَلى فِراشِ المَوْتِ ، أَنَّها كانَتْ سَرَقَتْ شَيْئًا مِنْ أُمِّ أُوليفَر الَّتي ماتَتْ بُعَيْدَ وَضْعِ طِفْلِها .»

صاحَ مونكْس بِتَلَهُّفٍ : «ما كانَ ذٰلِكَ الشَّيْءُ؟ أَيْنَ هُوَ؟»

أَجابَتِ السَّيِّدَةُ بَمْبِل ، وهْيَ تَرْمي كيسًا جِلْدِيًّا صَغيرًا أَمامَهُ عَلى الطّاوِلَةِ : «ها هُوَ . كَما تَسَلَّمْتُهُ تَمامًا .»

اِنْقَضَّ مونكْس عَلى الكيسِ انْقِضاضًا شَرِهًا . وفَتَحَهُ مُمَزِّقًا إِيّاهُ بِيَدَيْهِ المُرْتَعِشَتَيْنِ . فَوَجَدَ فيهِ مُدَلّاةً ذَهَبِيَّةً مِمّا يُعَلَّقُ في العُنُقِ . فَتَحَ عُلَيْبَةَ المُدَلّاةِ فإذا فيها خُصْلَتانِ مِنَ الشَّعْرِ وخاتَمُ زَواجٍ ذَهَبِيٌّ نُقِشَ عَلَيْهِ اسْمُ آغْنِس .

أَزاحَ مونكْس الطّاوِلَةَ الَّتي يَجْلِسونَ عَلَيْها ورفَعَ بابًا في أَرْضِيَّةِ القاعةِ ، وطَلَبَ مِنَ السَّيِّدِ بَمْبل وَزَوْجَتِهِ أَنْ يَنْظُرا إلى أَسْفَلُ . ثُمَّ أَنْزَلَ قِنْديلًا مُعَلَّقًا بِحَبْلٍ ، فانْكَشَفَ تَحْتَهُمْ ماءٌ مُوحِلٌ مُتَحَرِّكٌ . ثُمَّ أَلْقى الكيسَ ، بِما فيهِ ، في الماءِ المُوحِلِ .

نَظَرَ مونكْس نَظْرَةَ وَعيدٍ وتَهْديدٍ وقالَ : «إذا تَلَفَّظْتُما بِكَلِمَةٍ عَمّا جَرى في هٰذِهِ الغُرْفَةِ فَسَوْفَ تَنْتَهِيانِ ، كَما انْتَهى هٰذا الكيسُ ، في ماءِ النَّهْرِ . عودا الآنَ إلى بَلَدِكُما بِأَقْصى ما تَسْتَطيعانِ مِنْ سُرْعَةٍ .»

أَسْرَعَ السَّيِّدُ بَمْبِل وزَوْجَتُهُ مُتَّجِهَيْنِ إلى بَلَدِهِما وقَدْ مَلَكَهُما الذُّهولُ وقَلْبُهُما يَقْفِزُ مِنْ رُعْبٍ .



في تِلْكَ الأَثْناءِ ظَلَّ بِل سايكْس أَسابيعَ يُعاني مِنْ وَطْأَةِ المَرَضِ. لٰكِنَّهُ كانَ قَدْ بَدأَ يَتَماثَلُ لِلشِّفاءِ بِفَضْلِ العِنايَةِ الفائِقَةِ الصّادِقَةِ الَّتي أَحاطَتْهُ بِها نانْسي. ولَمّا كانَ في ذٰلِكَ الوَقْتِ بِحاجَةٍ إلى المالِ فَقَدْ أَرْسَلَ نانْسي إلى فاغِن طالِبًا العَوْنَ.

اِسْتَقْبَلَ فاغِن زائِرَتَهُ بِتَحِيَّتِهِ السّاخِرَةِ المُعْتادَةِ، وقالَ، وقَدْ بَدا خائِفًا مِنْ أَنْ يَرُدَّ طَلَبَ بِل:

«طَبْعًا، يا عَزيزَتي. سأُساعِدُ صَديقِي القَديمَ. طَبْعًا سأُساعِدُهُ.»

وسُمِعَ، في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، قَرْعٌ مُفاجِئٌ على البابِ. وكانَ القادِمُ مونكْس. لٰكِنَّهُ ارْتَدَّ بِعَصَبِيَّةٍ حينَ رأى أَنَّ فاغِن لَيْسَ وَحيدًا.

فأَسْرَعَ فاغِن يَقولُ لَهُ: «اِطْمَئِنَّ. إِنَّها واحِدَةٌ مِنّا. عَلى كُلِّ حالٍ، سَنَصْعَدُ إلى غُرْفَةٍ عُلْوِيَّةٍ ونَتَبادَلُ الحَديثَ عَلى انْفِرادٍ.»



مَشى الرَّجُلانِ مَعًا إلى الغُرْفَةِ العُلْوِيَّةِ. وما إنْ أَغْلَقا البابَ وَراءَهُما حَتّى خَلَعَتْ نانْسي حِذاءَها وأَسْرَعَتْ تَصْعَدُ الدَّرَجَ عَلى رُؤُوسِ أَصابِعِها، وقَدْ مَلَأَها الفُضولُ لِتَعْرِفَ ما بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ. وقَدْ أَرْبَكَها ما سَمِعَتْ وأَحْزَنَها. ثُمَّ حينَ أَحَسَّتْ أَنَّ اللِّقاءَ أَوْشَكَ أَنْ يَنْتَهِيَ أَسْرَعَتْ بِالنُّزولِ.

بَعْدَ ذَهابِ مونكْس، أَعْطى فاغِن إلى نانْسي المالَ الَّذي طَلَبَهُ بِل سايكْس. وقَدْ تَناوَلَ سايكْس المالَ بِعَنْجَهِيَّتِهِ المَعْهودَةِ، دونَ أَنْ يُلاحِظَ شُحوبَ نانْسي وارْتِباكَها.

قَضى بِل سايكْس سَحابَةَ اليَوْمِ التّالي يَشْرَبُ ويَأْكُلُ، وما إنْ حَلَّ المَساءُ حَتّى كانَ التَّعَبُ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ كُلَّ مأْخَذٍ، فنامَ نَوْمًا عَميقًا. ووَجَدَتْ نانْسي في ذٰلِكَ الفُرْصَةَ الَّتي كانَتْ تَنْتَظِرُها، فتسَلَّلَتْ مِنَ المَنْزِلِ وأَسْرَعَتْ إلى فُنْدُقٍ هادِئٍ مِنْ فَنادِقِ العاصِمَةِ كانَتِ السَّيِّدَةُ مايْلي وَروز تَنْزِلان فيهِ آنَذاكَ. وكانَتْ قَدْ عَرَفَتْ مَكانَ إقامَتِهِما مِمّا سَمِعَتْهُ مِنْ مُحادَثَةِ مونكْس وفاغِن. وفي الفُنْدُقِ طَلَبَتْ مِنْ أَحَدِ المُوَظَّفينَ نَقْلَ رِسالَةٍ عاجِلَةٍ إلى روز مايْلي. ما إنْ تَسَلَّمَتْ روز الرِّسالَةَ حَتّى أَسْرَعَتْ إلى دَعْوَةِ الزّائِرَةِ الغَريبَةِ، وقَدْ حَيَّرَها أَمْرُها.

راحَت نانْسي تَتَحَدَّثُ بِقَلَقٍ: «أَشْكُرُكِ يا آنِسَةُ عَلى اسْتِقْبالِكِ لي. إنّي أُخاطِرُ بِحَياتي إذْ أَزورُكِ. لٰكِنْ أَنْتِ وَحدَكِ قادِرَةٌ عَلى إنْقاذِ حَياتي وحَياةِ آخَرينَ مِنَ الخَطَرِ الَّذي يَتَهَدَّدُنا.»

أَصابَ غُموضُ المَوْقِفِ روز بِحَيْرَةٍ شَديدَةٍ، وقالَتْ: «ما الَّذي تَقولينَهُ؟ إنَّكِ تُخيفينَني.»

أَسْرَعَتْ نانْسي إلى الكَشْفِ عَمّا في صَدْرِها، قائلةً: «أَنا كُنْتُ مَسْؤولَةً عَنِ اخْتِطافِ أوليڤَر وإعادَتِهِ إلى زُمْرَةِ الأَشْرارِ... هَلْ تَعْرِفينَ رَجُلاً اسْمُهُ مونكْس؟»

أَجابَتْ روز بِسُرْعَةٍ: «لا، لَمْ أَسْمَعْ بِهٰذا الاِسْمِ مِنْ قَبْلُ.»

قالَتْ نانْسي: «إنَّهُ يَعْرِفُكِ، ويَعْرِفُ أَيْنَ تُقيمينَ. سَمِعْتُهُ يَتَحَدَّثُ عَنْكِ، وعَرَفْتُ مِنْهُ عُنْوانَكِ.»

اِزْدادَتْ حَيْرَةُ روز ، وقالَتْ : «ما الَّذي يُريدُهُ هٰذا الرَّجُلُ مِنّي؟»

بَدا القَلَقُ في وَجهِ نانْسي ، وهْيَ تُجيبُ : «إنَّهُ يُريدُ إيذاءَ أُولِڤَر. سَمِعْتُهُ يُصَرِّحُ بِذٰلِكَ. وسَمِعْتُهُ يَقولُ أَيْضًا إنَّ الدَّليلَ الوَحيدَ على هُوِيَّةِ أُولِڤَر الحَقيقيَّةِ مَدْفونٌ في قاعِ النَّهْرِ ، وإنَّهُ لَنْ يَتَوَرَّعَ عَنْ قَتْلِ أَخيهِ إذا لَمْ يَكُنْ في ذٰلِكَ ما يُعَرِّضُ حَياتَهُ هُوَ لِلْخَطَرِ.»

صاحَتْ روز غَيْرَ مُصَدِّقَةٍ ما تَسْمَعُ : «أَخوهُ! أُولِڤَر أَخو مونْكْس؟»

فَرَدَّتْ نانسي بِحَرارَةٍ : «نَعَمْ ، يا آنِسَةُ ، إنَّهُ أَخوهُ ، أَنا واثِقَةٌ مِنْ ذٰلِكَ.»

تَحَوَّلَتِ الرِّيبَةُ في قَلْبِ روز إلى حَيْرَةٍ وفَزَعٍ ، وقالَتْ : «كَيْفَ أُنْقِذُهُ؟ أَسْتَطيعُ ، إنْ كانَ ذٰلِكَ مُناسِبًا ، أَنْ أَهْرُبَ بِأُولِڤَر وبِكِ إلى حَيْثُ لا تَسْتَطيعُ زُمْرَةُ الأَشْرارِ الوُصولَ إلَيْكُما.»

أَسْرَعَتْ نانْسي تَقولُ بِحَسْرَةٍ : «لا ، لا ، يا آنِسَةُ. أَنا لا آسَفُ عَلى نَفْسي. لَقَدْ فاتَ أَوانُ إنْقاذي مِنْهُمْ. لٰكِنْ بِإمْكانِكِ أَنْ تُساعِدي أُولِڤَر إذا قابَلْتِني عَلى جِسْرِ لَنْدَن. سَأَكونُ هُناكَ كُلَّ يَوْمِ أَحَدٍ بَيْنَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ لَيْلًا ومُنْتَصَفِ اللَّيْلِ. عَلَيْكِ أَنْ تَكوني بِرِفْقَةِ صَديقٍ أَمينٍ ، وأَنْ تَعِدي بِأَلّا تَشي بي. فإنَّ حَياةَ أُولِڤَر تَتَوَقَّفُ عَلى ذٰلِكَ ، ورُبَّما حَياتي أَنا أَيْضًا.»

رَوَّعَتْ تِلْكَ التَّطَوُّراتُ المُفاجِئَةُ روز فصاحَتْ بِصِدْقٍ : «أَعِدُكِ ، أَعِدُكِ.»

قالَتْ نانْسي : «شُكْرًا ، يا آنِسَةُ. لِيَحْفَظْكِ اللهُ. لَوْ أَنّي قابَلْتُ مَلاكًا مِثْلَكِ أَوَّلَ تَفَتُّحي عَلى الحَياةِ لَما كُنْتُ على ما أَنا عَلَيْهِ اليَوْمَ. لِيَحْفَظْكِ اللهُ.»

غَلَبَ التَّأَثُّرُ عَلى نانْسي فراحَتْ ، وهْيَ في طَريقِ عَوْدَتِها إلى بِل سايكْس ، تَجْهَشُ بِالبُكاءِ.

أَقَضَّ القَلَقُ والضِّيقُ مَضْجَعَ روز فلَمْ تَجِدْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إلى النَّوْمِ سَبيلًا. وراحَتْ تَتَساءَلُ إنْ كانَ يَحْسُنُ بِها أَنْ تُحَدِّثَ أُولِڤَر أَوِ الدُّكْتورلوزبَرْن بِما عَلِمَتْهُ مِن نانْسي ، أَوْ إنْ كانَ عَلَيْها أَنْ تَطْلُبَ مِنْ عَمَّتِها اسْتِشارَةَ مُحامي الأُسْرَةِ.





اِتَّخذَتِ الأَحْداثُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي مَسارًا مُفاجِئًا. فَلَقَدِ انْدَفَعَ أُولِڤَر إلى داخِلِ البَيْتِ بِلَهْفَةٍ شَديدَةٍ وأَخْبَرَ روز أَنَّهُ لَمَحَ السَّيِّدَ براونْلو يَمُرُّ بِعَرَبَتِهِ. وأَنَّ السَّيِّدَ غايلز، الَّذي لَمْ يَكُنْ أُولِڤَر يَتَنَزَّهُ إلّا بِحِمايَتِهِ، قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الحُصولِ عَلى عُنْوانِ السَّيِّدِ براونْلو.

قالَ أُولِڤَر مُتَوَسِّلًا: «عَلَيْنا أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهِ حالًا. عَلَيْنا أَنْ نُخْبِرَهُ بِأَنَّني لَمْ أَسْرِقْ مالَهُ ولَمْ أَهْرُبْ، بَلْ إِنَّ الأَشْرارَ هُمُ الَّذينَ اخْتَطَفوني وأَبْعَدوني.»

طَلَبَتْ روز عَرَبَتَها في الحالِ، واتَّجَهَتْ هِيَ وأُولِڤَر إلى بَيْتِ السَّيِّدِ براونْلو. وكانَتْ سَعادَةُ السَّيِّدِ براونْلو وصَديقِهِ السَّيِّدِ غْرِمْوِغ بِعَوْدَةِ أُولِڤَر غامِرَةً. واعْتَذَرَ السَّيِّدُ غْرِمْوِغ عَنْ شُكوكِهِ السّابِقَةِ في أَمانَةِ أُولِڤَر، بَلْ إِنَّهُ في غَمْرَةِ فَرَحِهِ طَبَعَ قُبْلَةً عَلى خَدِّ روز.

ثُمَّ اسْتُدْعِيَتِ السَّيِّدَةُ بِدْوِن الَّتي كانَتْ قامَتْ عَلى العِنايَةِ بِأُولِڤَر أَثْناءَ مَرَضِهِ لِتَرى الجَوّالَ العائِدَ. وما إِنْ وَقَعَ نَظَرُ أُولِڤَر عَلَيْها حَتّى رَكَضَ إِلَيْها ورَمى نَفْسَهُ بَيْنَ ذِراعَيْها.

صاحَتِ السَّيِّدَةُ بِدْوِن بِتَأَثُّرٍ: «شُكْرًا لَكَ يا إِلٰهي. هٰذا هُوَ الصَّبِيُّ الوَديعُ الصّادِقُ!»
أَمّا أُولِڤَر فَقَدْ بَلَّلَتِ الدُّموعُ وَجْنَتَيْهِ، وقَدْ غَلَبَهُ التَّأَثُّرُ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقولَ إِلّا: «آهِ، يا مُمَرِّضَتِي العَجوزَ المَحْبوبَةَ!»

وقالَتِ السَّيِّدَةُ بِدْوِن بِتَأَثُّرٍ: «كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ عائِدٌ. لَقَدِ اسْتَجابَ اللهُ لِصَلَواتي.»

اِنْتَحَتْ روز بِالسَّيِّدِ براونْلو، عِنْدَئِذٍ، جانِبًا، وسَرَدَتْ لَهُ كُلَّ ما حَدَثَ مُنْذُ اخْتِفاءِ أُولِڤَر مِنْ مَنْزِلِهِ، وأَخْبَرَتْهُ، أَخيرًا، عَنِ السَّيِّدِ الغامِضِ مونكْس، وعَمّا فَهِمَتْهُ نانْسي مِنْ أَنَّهُ أَخو أُولِڤَر. ثُمَّ سَأَلَتِ السَّيِّدَ براونْلو أَنْ يُرافِقَها لِمُقابَلَةِ نانْسي عَلى جِسْرِ لَنْدَن، فَإِنَّها كانَتْ واثِقَةً أَنَّ تِلْكَ المُقابَلَةَ سَتُؤَدّي إلى كَشْفِ الغُموضِ، ورُبَّما إلى اعْتِقالِ السَّيِّدِ مونكْس، الَّذي يَقِفُ، عَلى ما يَبْدو، وَراءَ هٰذِهِ الشُّرورِ كُلِّها.

كانَ بِل سايكْس ، في تِلْكَ الأَثْناء ، قَدْ بَدأَ يَرْتابُ بِتَصرُّفاتِ نانسي ، فمَنَعَها مِنْ تَرْكِ البَيْتِ لَيْلًا ، كَما حَرَصَ عَلى مُراقَبَةِ تَحرُّكاتِها مُراقَبَةً دَقيقَةً .

وَضَعَتْ نانْسي في مَساءِ الأَحَدِ التّالي مُنَوِّمًا في شَرابِ بِل ، وهٰكَذا تَمَكَّنَتْ مِنْ أَنْ تَتْرُكَ البَيْتَ في الحادِيَةَ عَشْرَةَ بَيْنَما كانَ لا يَزالُ غارِقًا في نَوْمٍ عَميقٍ . وَنَحْوَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ مَرَّ السَّيِّدُ براونْلو وروز عَلى الجِسْرِ . فأَسْرَعَتْ نانْسي إِلَيْهِما غَيْرَ مُدْرِكَةٍ أَنَّ جاسوسًا مِنْ جَواسيسِ فاغِن كانَ قابِعًا في العَتَمَةِ يُراقِبُ حَرَكاتِها عَلى بُعْدِ أَمْتارٍ .

وَقَفَ السَّيِّدُ براونْلو وَروز والصَّبِيَّةُ القَلِقَةُ نانْسي في ظِلِّ عَمودٍ مِنْ أَعْمِدَةِ الجِسْرِ وراحوا يَتَحدَّثونَ هَمْسًا .

قالَ السَّيِّدُ براونْلو : «إني أَثِقُ بِكِ . لا أُريدُ إِلّا انْتِزاعَ الحَقيقَةِ مِنْ مونكْس ؛ إِنَّهُ وَحْدَهُ القادِرُ عَلى كَشْفِ الغُموضِ . إِذا نَجَحْنا في هٰذا المَسْعى ، فلَنْ نَطْلُبَ غَيْرَ ذٰلِكَ . وإِذا فَشِلْنا فلَنْ نَدَّعِيَ عَلى فاغِن وزُمْرَتِهِ مِنْ دونِ مُوافَقَتِكِ . ولَنْ يَعْرِفَ أَحَدٌ ، بِطَبيعَةِ الحالِ ، أَنَّكِ ساعَدْتِنا في هٰذا الشَّأْنِ .»

سأَلَتْ نانْسي ، وقَدْ زايَلَها شَيْءٌ مِنَ القَلَقِ : «هَلْ لي أَنْ آخُذَ الوَعْدَ نَفْسَهُ مِنَ الآنِسَةِ ؟»

فرَدَّتْ روز بِسُرْعَةٍ : «نَعَمْ ، أَعِدُكِ وَعْدًا أَمينًا صادِقًا .»

أَخْبَرَتْهُما نانْسي عِنْدَئِذٍ أَنَّ مونكْس يَتَرَدَّدُ عَلى نُزُلٍ في المَدينَةِ . وقالَتْ : «إِنَّ مونكْس طَويلٌ ، مَتينُ البِنْيَةِ ، ذو عَيْنَيْنِ سَوْداوَيْنِ وشَعْرٍ أَسْوَدَ .»

قاطَعَها السَّيِّدُ براونْلو قائلًا : «هَلْ رَأَيْتِ عَلى عُنُقِهِ أَثَرًا أَحْمَرَ عَريضًا ، يُشْبِهُ حَرْقًا ؟»

شَهِقَتْ نانْسي ، وقالَتْ : «كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟ أَأَنْتَ تَعْرِفُهُ ؟»

رَدَّ السَّيِّدُ براونْلو قائلًا : «أَظُنُّ أَنّي أَعْرِفُهُ . لكِنْ قولي لي الآنَ كَيْفَ نَسْتَطيعُ مُساعَدَتَكِ ؟»

أَجابَتْ نانْسي : «لا تَسْتَطيعُ مُساعَدَتي ، يا سَيِّدي . فلا أَمَلَ لي بِالخَلاصِ مِنْهُمْ .»

أَسْرَعَ السَّيِّدُ براونْلو يَقولُ : «هُراءٌ . بِإِمْكانِنا أَنْ نُخْفِيَكِ في مَكانٍ آمِنٍ في إِنْكِلْترا أَوْ في



خارِجِها. وسَتَعيشينَ، بَعْدَ كُلِّ ما عانَيْتِ، عِيْشَةَ راحةٍ وأمانٍ، بَعيدًا عَنْ زُمْرَةِ الأَشْرارِ.»

بَلَّلَتِ الدُّموعُ وَجْهَ الصَّبيَّةِ وهْيَ تُجيبُ: «لا أَسْتَطيعُ، يا سَيِّدي. أَنا غارِقَةٌ مَعَهُمْ. لَقَدْ مَشَيْتُ طَريقًا طَويلَةً لا أَقْدِرُ أَنْ أَرْتَدَّ عَنْها الآنَ. فاسْمَحْ لي أَنْ أَعودَ إلى بَيْتي.»

سأَلَتْ روز في دَهْشَةٍ: «بَيْتِكِ؟»

قالَتْ نانْسي: «نَعَمْ، يا آنِسَةُ، إِنَّهُ البَيْتُ الوَحيدُ الَّذي أَعْرِفُهُ، وأُولٰئِكَ قَوْمي الَّذينَ لَمْ أَعْرِفْ سِواهُمْ. وَداعًا، ولْيَحْفَظْكُما اللهُ.»

أَسْرَعَتْ نانْسي في الظَّلامِ، وقَدْ غَلَبَتْها الدُّموعُ. ولَمْ تَلْحَظِ الجاسوسَ الَّذي راقَبَ المَشْهَدَ وسَمِعَ أَكْثَرَ الحَديثِ، وانْطَلَقَ بَعْدَ ذٰلِكَ يُسابِقُ الرّيحَ عائِدًا إلى فاغِن.

كانَتَ الأَنْباءُ الَّتي حَمَلَها الجاسوسُ مُفْزِعةً. أَدْرَكَ فاغِن أَنَّ نانسي خانَتْهُمْ جَميعًا، وأَنَّهُمْ باتوا في خَطَرٍ داهِمٍ. وحينَ جاءَ بِل زائِرًا في صَباحِ اليَوْمِ التّالي نَقَلَ إِلَيْهِ فاغِن الخَبَرَ المُفْجِعَ. صُعِقَ سايكْس ولَمْ يَكُنْ لِيُصَدِّقَ أَنَّ نانْسي قَدْ خانَتْهُمْ كُلَّهُمْ. وفَجْأَةً، أَدْرَكَ مَعْنى تَصَرُّفاتِها كُلِّها، فخَرَجَ مِنَ المَنْزِلِ، كَالمَجْنونِ، لِيُنْزِلَ العِقابَ بالرفيقَةِ الَّتي وَشَتْ بِهِ.

صاحَ فاغِن وهُوَ يَجْري وَراءَهُ: «لا تُسْرِفْ في القَسْوةِ. اِسْتَعْمِلْ دَهاءَكَ يا بِل؛ فلا يَزالُ أَمامَنا فُرْصَةٌ لإِنْقاذِ أَنْفُسِنا.»

وَصَلَ سايكْس مَنْزِلَهُ في حالَةٍ مِنَ الهِياجِ الشَّديدِ. وكانَتْ نانْسي تَنامُ في سَريرِها في إِحْدى الغُرَفِ. أَمْسَكَها سايكْس مِنْ رُسْغِ يَدِها بِشِدَّةٍ وراحَ يَجُرُّها عَلَى أَرْضِ الغُرْفَةِ. ثُمَّ أَمْسَكَ عُنُقَها فراحَتْ تَسْتَغيثُ وتَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ بِصوْتٍ مُتقطِّعٍ لاهِثٍ قائلةً:

«لا تَقْتُلْني، يا بِل، لَقَدْ تَخَلَّيْتُ لِأَجْلِكَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. تَوَقَّفْ، قَبْلَ فَواتِ الأَوانِ.»

صَرَخَ سايكْس بِصَوْتٍ مُزَمْجِرٍ قائلًا: «أَيَّتُها الشَّيْطانَةُ. لَقَدْ كُنْتِ مُراقَبَةً لَيْلَةَ أَمْسِ. ونَحْنُ نَعْرِفُ الآنَ كُلَّ شَيْءٍ.»

سَحَبَ سايكْس مُسَدَّسَهُ، لٰكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ صَوْتَ الرَّصاصِ سَيَفْضَحُهُ. فانْقَضَّ بِعَقِبِ المُسَدَّسِ، بِكُلِّ ما أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، عَلى وَجْهِ نانْسي المُرْتَفِعِ إِلَيْهِ تَوَسُّلًا. اِنْتَشَرَ الدَّمُ في كُلِّ مَكانٍ. وراحَتِ الضَّحِيَّةُ تَزْحَفُ عَلى رُكْبَتَيْها مُحاوِلَةً الاِبْتِعادَ، فانْقَضَّ عَلَيْها بِل بِوَحْشِيَّةٍ بِهِراوَةٍ، فسَقَطَتْ أَرْضًا سَقْطَةً لَمْ تَقُمْ مِنْ بَعْدِها أَبَدًا.

بَقِيَ سايكْس بُرْهَةً ذاهِلًا لا يَتَحَرَّكُ. واسْتَعادَ وَعْيَهُ تَدْريجًا. فراحَ يُنَظِّفُ بُقَعَ الدَّمِ الَّتي عَلِقَتْ بِثِيابِهِ وبِسائِرِ أَنْحاءِ الغُرْفَةِ. بَلْ إِنَّهُ نَظَّفَ بُقَعَ الدَّمِ عَنْ قَدَمَيْ كَلْبِهِ. ثُمَّ أَغْلَقَ بابَهُ وتَرَكَ البَيْتَ عَلى عَجَلٍ.





وظَلَّتْ صورةُ نانْسي ، ووَجْهُها مُرْتَفِعٌ إِلَيْهِ مُتَوَسِّلًا أَنْ يُبْقِيَ عَلى حَياتِها ، تُطارِدُهُ طَوالَ ذَلِكَ اليَوْمِ والأَيّامِ الَّتي تَلَتْ . وقَرَّرَ ، والذُّعْرُ يَتَمَلَّكُهُ ، أَنْ يَأْخُذَ مالًا مِنْ فاغِن ويَهْرُبَ إِلى فَرَنْسا حَيْثُ يَصْعُبُ الوُصولُ إِلَيْهِ .

خَطَرَ لَهُ ، فَجْأَةً ، خاطِرٌ مُرْعِبٌ . فقَدْ تَتَمَكَّنُ الشُّرْطَةُ مِنْ تَعَقُّبِ أَثَرِهِ بِتَعَقُّبِ كَلْبِهِ . عالَمُ الإِجْرامِ كُلُّهُ كانَ يَعْلَمُ أَنَّ بِل سايكْس وكَلْبَهُ الأَبْيَضَ لا يَفْتَرِقانِ ؛ فقَرَّرَ قَتْلَ الكَلْبِ . حَمَلَ حَجَرًا ثَقيلًا وحَبْلًا ، ومَشى هُوَ وكَلْبُهُ إِلى بِرْكَةٍ مُنْعَزِلَةٍ هادِئَةٍ . وأَمامَ البِرْكَةِ نادى كَلْبَهُ . فهَزَّ الكَلْبُ ذَنَبَهُ ، وتَرَدَّدَ في إِطاعَةِ سَيِّدِهِ ، ثُمَّ هَرَّ ، وهْوَ يُحاوِلُ التَّراجُعَ ، بِصَوْتٍ غَريبٍ .

اِنْقَضَّ سايكْس عَلى الكَلْبِ وأَمْسَكَهُ وهْوَ يَقولُ مُزَمْجِرًا : «تَعالَ ، أَيُّها الشَّيْطانُ» . ولٰكِنَّ الكَلْبَ ، وكَأَنَّما أَحَسَّ بِالخَطَرِ الَّذي يُحيقُ بِهِ ، تَمَلَّصَ مِنْ يَدِ سَيِّدِهِ ورَكَضَ بِأَقْصى سُرْعَةٍ .

اِسْتطاعَ السَّيِّدُ براونْلو في هٰذِهِ الأَثْناءِ مِنْ تَحْديدِ مَكانِ مونكْس ، مُسْتَعينًا بِالمَعْلوماتِ الَّتي تَلَقّاها مِنْ نانْسي. فحُمِلَ مونكْس إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ براونْلو بِحِراسَةِ رَجُلَيْنِ ضَخْمَيْنِ قَوِيَّيْنِ لا مَجالَ لِمُعارَضَتِهِما.

واجَهَ السَّيِّدُ براونْلو خَصْمَهُ بِوَجْهٍ عابِسٍ صارِمٍ ، وقالَ لَهُ : «إمّا أَنْ تُخْبِرَني الحَقيقَةَ كُلَّها أَوْ أُسَلِّمَكَ إلى الشُّرْطَةِ بِتُهْمَةِ الاحْتِيالِ والتّآمُرِ والسَّرِقَةِ. ولا خَيارَ أَمامَكَ غَيْرُ هٰذَيْنِ.»

اِحْتَجَّ مونكْس قائلًا : «أَيُّ مُعامَلَةٍ هٰذِهِ الَّتي أَلْقاها مِنْ أَعَزِّ أَصْدِقاءِ أَبي؟»

رَدَّ السَّيِّدُ براونْلو قائلًا : «إكْرامًا لِذِكْرى الصَّداقَةِ الغالِيَةِ الَّتي كانَتْ بَيْنَ أَبيكَ وبَيْني أُعامِلُكَ الآنَ بِرَأْفَةٍ. أَلَمْ يَكُنْ اسْمُ إدْوارْد ليفورد يُعْجِبُكَ حَتّى تَسَمَّيْتَ بِاسْمِ مونكْس؟»

قالَ مونكْس بِلَهْجَةٍ لاذِعَةٍ : «والآنَ ، ماذا تُريدُ مِنّي؟»

تابَعَ السَّيِّدُ براونْلو بِصَوْتٍ هادِئٍ : «الأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَخيكَ. أَنا أَعْرِفُ ، وأَنْتَ تَعْرِفُ أَيْضًا ، أَنَّ زَواجَ أَبيكَ وأُمِّكَ كانَ غَيْرَ مُوَفَّقٍ وانْتَهى بِالفِراقِ. وكانَ أَبوكَ في الحادِيَةِ والثَّلاثينَ مِنَ العُمْرِ حينَ الْتَقى فَتاةً في التّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها هِيَ ابْنَةُ ضابِطٍ بَحْرِيٍّ مِنْ أَصْدِقاءِ أَبيكَ. وكُنْتَ أَنْتَ آنَئِذٍ في الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِكَ. وقَدْ وَقَعَ أَبوكَ في حُبِّ تِلْكَ الفَتاةِ ، واسْمُها آغْنِس ، وجاءَ أَخوكَ الَّذي نَعْرِفُهُ الآنَ بِاسْمِ أُولِفَر تْوِسْت ثَمَرَةً لِذٰلِكَ الحُبِّ.»

قالَ مونكْس : «قِصَّتُكَ غَريبَةٌ. ولا بُرْهانَ عِنْدَكَ يُثْبِتُها.»

تابَعَ السَّيِّدُ براونْلو حَديثَهُ بِثَباتٍ وثِقَةٍ قائلًا : «كانَ عَلى أَبيكَ أَنْ يَذْهَبَ إلى روما في عَمَلٍ. وهُناكَ مَرِضَ مَرَضًا مُفاجِئًا أَوْدى بِحَياتِهِ. لٰكِنْ كانَ قَبْلَ سَفَرِهِ قَدْ أَسَرَّ إِلَيَّ بِالقِصَّةِ كُلِّها ، وأَعْطاني لَوْحَةً تُمَثِّلُ مَحْبوبَتَهُ آغْنِس ، وذَكَرَ لي أَنَّهُ أَعَدَّ وَصِيَّةً جَديدَةً أَوْصى فيها بِالقِسْمِ الأَكْبَرِ مِنْ أَمْلاكِهِ لآغْنِس والجَنينِ الَّذي تَحْمِلُهُ ، وأَنَّهُ كانَ قَدْ وَهَبَكَ ووَهَبَ أُمَّكَ مِنْ قَبْلُ نَصيبًا مِنْ أَمْوالِهِ وأَمْلاكِهِ. لٰكِنَّ الوَصِيَّةَ الجَديدَةَ لَمْ تَظْهَرْ ، فَقَدْ أَتْلَفَتْها أُمُّكَ.»

بَدا مونكْس شاحِبًا قَلِقًا ، وقَدْ صَدَمَهُ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذي يُواجِهُ اتِّهامَهُ يَعْرِفُ الكَثيرَ . تابَعَ السَّيِّدُ براونْلو حَديثَهُ بِثَباتٍ وصَرامَةٍ قائِلًا : «حاوَلْتُ طَويلًا العُثورَ عَلى الفَتاةِ البائِسَةِ الَّتي أَحَبَّها والِدُكَ ، لٰكِنْ دونَ جَدْوى . كانَتْ وَحيدَةً مُعْوِزَةً . غَيْرَ أَنَّ شُعورَها بِعارِ الجَنينِ الَّذي تَحْمِلُهُ في أَحْشائِها جَعَلَها تَمْتَنِعُ عَنِ اللُّجوءِ إِلى أُسْرَتِها وأَصْدِقائِها . وكانَ هٰذا السَّبَبَ في أَنَّ أُولِفَر وُلِدَ ، كَما عَرَفْتُ فيما بَعْدُ ، في مَلْجإٍ .»

صَمَتَ السَّيِّدُ براونْلو بُرْهَةً ، كانَ مونكْس أَثْناءَها يَتَحَرَّكُ في كُرْسِيِّهِ تَحَرُّكَ مُرْتَبِكٍ قَلِقٍ . ثُمَّ تابَعَ قائِلًا : «وحَدَثَ ما هُوَ أَغْرَبُ مِنَ الخَيالِ ، فَقَدِ الْتَقَيْتُ أَخاكَ صِدْفَةً دونَ أَنْ أَعْرِفَ شَخْصِيَّتَهُ الحَقيقِيَّةَ ، وحاوَلْتُ إِنْقاذَهُ مِنْ حَياةِ الشَّرِّ والجَريمَةِ . ولَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ الدَّهْشَةَ الَّتي أَصابَتْني حينَ لاحَظْتُ عَلى الفَوْرِ الشَّبَهَ الدَّقيقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ لَوْحَةٍ تُمَثِّلُ أُمَّهُ مُعَلَّقَةٍ في مَنْزِلي . أَدْرَكْتُ عِنْدَئِذٍ أَنَّكَ وَحْدَكَ قادِرٌ عَلى كَشْفِ الغُموضِ عَنْ هٰذِهِ القِصَّةِ .»

اِنْتَفَضَ مونكْس وصاحَ مُقاطِعًا براونْلو : «أَيُّ حُجَّةٍ عِنْدَكَ ؟ كُلُّ ما تَقولُهُ ضَرْبٌ مِنَ الحَدْسِ والتَّخمينِ . لا أَظُنُّكَ تَمْلِكُ إِثْباتًا واحِدًا .»

أَسْرَعَ السَّيِّدُ براونْلويَقولُ : «عَلى العَكْسِ ، فَأَنا أَعْرِفُ ما جَرى بَيْنَكَ وبَيْنَ فاغِن مَعْرِفَةً تامَّةً . أَعْرِفُ كَلِماتِكَ الَّتي تَفَوَّهْتَ بِها . وهْيَ : إِنَّ الدَّليلَ الوَحيدَ عَلى هُوِيَّةِ أُولِفَر الحَقيقِيَّةِ مَدْفونٌ في قاعِ النَّهْرِ .»

فَقَفَزَ مونكْس مَذْعورًا .

تابَعَ السَّيِّدُ براونْلويَقولُ : «وأَعْلَمُ ، فَوْقَ هٰذا ، أَنَّ جَريمَةَ قَتْلٍ وَقَعَتْ ، وأَنَّكَ ، إِلى حَدٍّ ما ، مَسْؤولٌ أَدَبِيًّا عَنْها .»

صاحَ مونكْس مُقاطِعًا في كَرْبٍ شَديدٍ : «لا ، لا . لا أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ ذٰلِكَ . لَنْ تَتَّهِمَني بِجَريمَةِ قَتْلٍ .»

قالَ السَّيِّدُ بْراونْلو : «إِذا وَقَّعْتَ إِقْرارًا بِالحَقائِقِ ، وأَعَدْتَ لِأُولِفَر حُقوقَهُ الَّتي سَلَبْتَهُ إِيّاها ، سَأَتْرُكُكَ حُرًّا . تَذَكَّرْ أَنَّ عَلَيْكَ أَنْ تَكْشِفَ تَفاصيلَ الأَحْداثِ كُلِّها ، وإِلّا فَمَصيرُكَ السِّجْنُ .»



راحَ مونكْس يَذْرَعُ الغُرْفَةَ ذَهابًا وإيابًا مَذْعورًا مِنْ يأْسِه. بَيْنَما تابَعَ السَّيِّدُ براونْلو يَقولُ: «سيُلْقى القَبْضُ على القاتِلِ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ. لا شَكَّ في ذٰلِكَ عِنْدي. فلَقَدْ تمكَّنَتِ الشُّرْطَةُ مِنْ تتبُّعِ آثارِ كَلْبِه. وأَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّ فاغِن سَيَقَعُ في يَدِ الشُّرْطَةِ هٰذِهِ اللَّيْلَةَ أَيْضًا.»

راحَ مونكْس يَفْرُكُ يَدَيْهِ أَلَمًا، ويَصيحُ صِياحًا هِسْتيرِيًّا قائلًا: «لٰكِنّي لَسْتُ عُضْوًا في عِصابَة فاغِن. أَرْجوكَ، لا تُخْبِرْ عَنّي، أَرْجوكَ! لا شأْنَ لي بِجَريمَةِ القَتْلِ. سأُعْطيكَ الأَوْراقَ كُلَّها بِطيبَةِ خاطِرٍ، سأُعْطيكَ رِسالَةَ أبي إلى آغْنِس.»

قاطَعَهُ السَّيِّدُ براونْلو قائلًا: «نعَمْ. الرِّسالَةَ. أَيْنَ هِيَ الرِّسالَةُ؟»

صاحَ مونكْس، وقَدْ أَخَذَ مِنْهُ الخَوْفُ على مَصيرِهِ كُلَّ مَأْخَذٍ: «نَعَمْ. نَعَمْ. الأَوْراقُ في كيسٍ مِنَ القِنَّبِ مُخَبَّأٍ في مَنْزِلِ فاغِن. سَيُخْبِرُكَ فاغِن بمكانِها. سأُوَقِّعُ ما شِئْتَ مِنْ أَوْراقٍ، بَلْ سأَعْتَرِفُ بأُمورٍ لا تَعْرِفُها.»

سأَلَ السَّيِّدُ براونْلو مُسْتَغْرِبًا: «أُمورٍ لا أَعْرِفُها: وهَلْ بَقِيَ مِنْ هٰذِهِ القِصَّةِ ما لا أَعْرِفُهُ؟»

صاحَ مونكْس بِصَوْتٍ يائسٍ: «إِنَّ روز مايْلي هِيَ أُخْتُ آغْنِس، أُمِّ أُولِفَر.»

قاطَعَهُ السَّيِّدُ براونْلو بِصَوْتٍ مِلْؤُهُ الشَّكُّ، قائلًا: «ماذا تَقولُ؟»

تابَعَ مونكْس: «نَعَمْ، إِنَّها الحَقيقَةُ. فإِنَّهُ حينَ ماتَ والِدُ آغْنِس عاشَتِ ابْنَتُهُ الطِّفْلَةُ روز في كَنَفِ عائلةٍ قَرَوِيَّةٍ في شَمالِ ويلْز، إلى أَنْ تَبَنَّتْها بَعْدَ بِضْعِ سَنَواتٍ السَّيِّدةُ مايلي الَّتي كانَتْ آنَذاكَ تَعيشُ في تْشِسْتَر.»

أَحَسَّ السَّيِّدُ براونْلو، حينَ سَمِعَ ذٰلِكَ الأَمْرَ المُذْهِلَ، بِلِسانِهِ يَنْعَقِدُ. ثُمَّ تَمالَكَ نَفْسَهُ، وجَعَلَ مونكْس يُوَقِّعُ إفادةً تَفْصيلِيَّةً بالحَقائقِ، ثُمَّ تَرَكَهُ يَرْحَلُ، كَما وَعَدَهُ. أَخيرًا، انْكَشَفَ الغُموضُ عَنْ تِلْكَ الأَحْداثِ المُتَشابِكَةِ. ولَمْ يَتَبَقَّ إِلَّا اسْتِعادةُ الرِّسالَةِ الَّتي في حَوْزَةِ فاغِن. فتِلْكَ الرِّسالَةُ سَتُثْبِتُ هُوِيَّةَ أُولِفَر وتُمَكِّنُهُ مِنْ وِراثَةِ أَمْلاكِ أَبيه.



فِي هٰذِهِ الأَثْناءِ ، كانَ أَفْرادُ عِصابَةِ فاغِن يَخْتَبِئونَ ، دونَ زَعيمِهِمْ ، في جَزيرَةٍ نَهْرِيَّةٍ مُنْعَزِلَةٍ مَهْجورَةٍ ، تُدْعى جَزيرةَ يَعْقوب ، تَتَأَلَّفُ مِنْ بِضْعِ فَدادينَ مِنَ الأَرْضِ الطِّينِيَّةِ المُنْبَسِطَةِ. ولا يَقومُ فَوْقَ تِلْكَ الجَزيرَةِ إلّا عَدَدٌ مِنْ هَياكِلِ بُيوتٍ قَديمَةٍ مَوْبوءَةٍ بِالجِرْذانِ ولا سَقْفَ لَها ، كانَ سُكّانُها قَدْ هَجَروها مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، وهِيَ مُهَدَّدَةٌ بِالتَّداعي في كُلِّ لَحْظَةٍ.

في أَحَدِ تِلْكَ المَنازِلِ ، جَلَسَ أَتْباعُ فاغِن في غُرْفَةٍ عُلْوِيَّةٍ صامِتينَ قَلِقينَ. وفَجْأَةً ، سَمِعوا قَرْعًا عَلى البابِ أَدْخَلَ الذُّعْرَ الشَّديدَ إلى قُلوبِهِمْ. ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ الطّارِقَ بِل سايكْس. وكانَ وَجْهُ بِل شَديدَ الشُّحوبِ مُثْقَلاً بِاليَأْسِ والفَزَعِ ، وبَدا كَأَنَّهُ لَمْ يَحْلِقْ ذَقْنَهُ مُنْذُ أَيّامٍ.

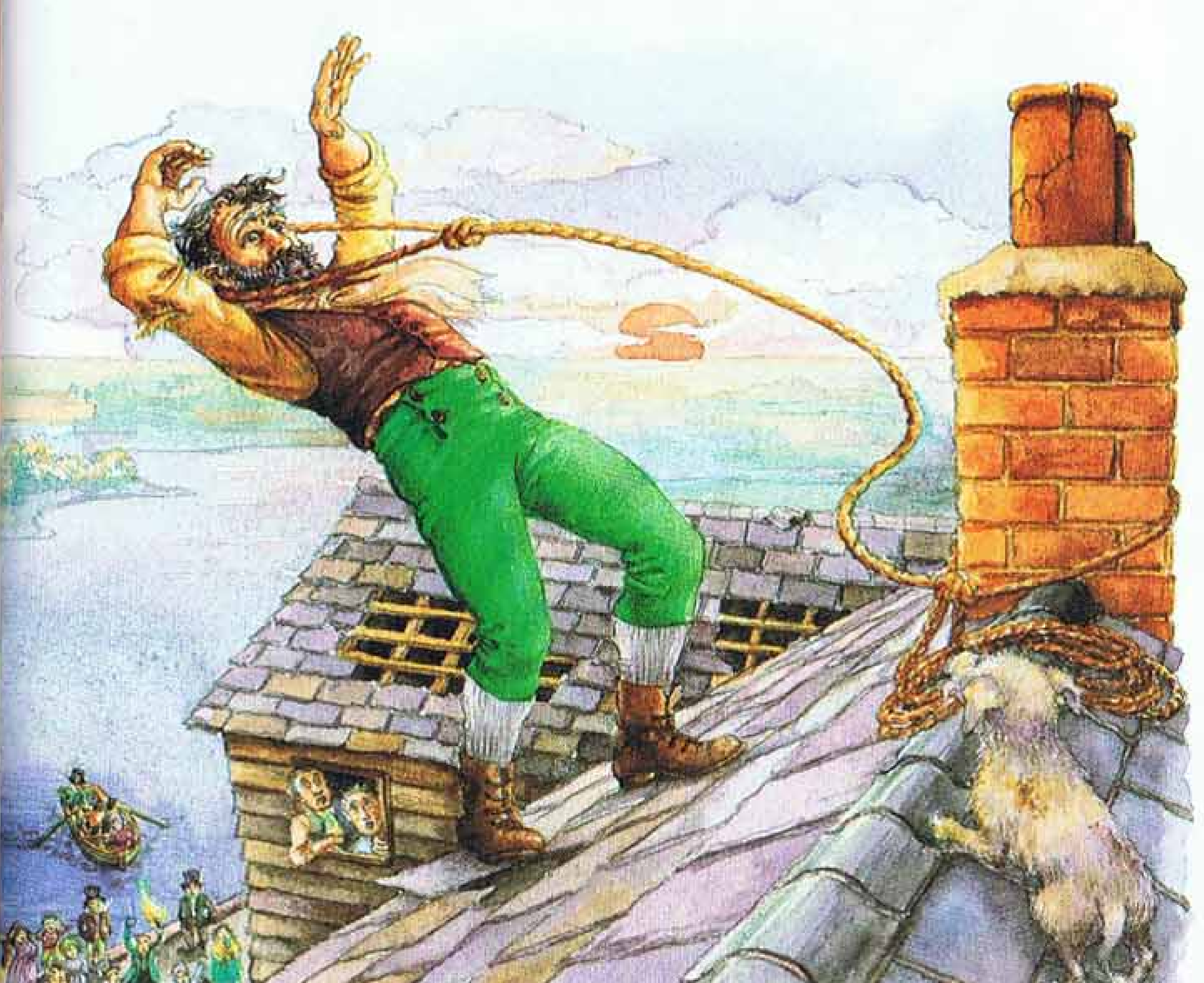
إِرْتَمى سايكْس في زاوِيَةٍ مِنْ زَوايا الغُرْفَةِ. وبَقِيَ صامِتًا بُرْهَةً. ثُمَّ تَمْتَمَ بِصَوْتٍ حَزينٍ قاتِمٍ قائِلاً : «وَقَعَ فاغِن في يَدِ الشُّرْطَةِ.»

أَحَسَّ أَفْرادُ العِصابَةِ ، وقَدْ خَسِروا زَعيمَهُمْ ، بِرُعْبٍ شَديدٍ ، وراحوا يَنْظُرونَ واحِدُهُمْ إلى الآخَرِ في ذُهولٍ. وَسُمِعَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ صَوْتُ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ رَكْضًا ، ثُمَّ صَوْتُ قَرْعٍ عَلى البابِ عَنيفٍ قَلِقٍ. ثُمَّ فُتِحَ البابُ وانْدَفَعَ تشارلي بيتْس يَلْهَثُ لُهاثًا شَديدًا ، وصاحَ :

إنْتَبِهوا ! اِنْتَبِهوا ! إنَّهُمْ في أَعْقابِنا . »

وَصَلَتْ إلَيْهِمْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ضَجَّةٌ أَخَذَتْ تَتَعاظَمُ شَيْئًا فشَيْئًا. فأَطَلَّ بِل سايكْس مِنْ نافِذَةٍ مُخَلَّعةٍ يَسْتَطْلِعُ الأَمْرَ. وتَعالَتْ في الحالِ أَصْواتٌ تَصيحُ :

«ها هُوَ.. ها هُوَ المُجْرِمُ ! فَلْنُمْسِكْ بِهِ ! »

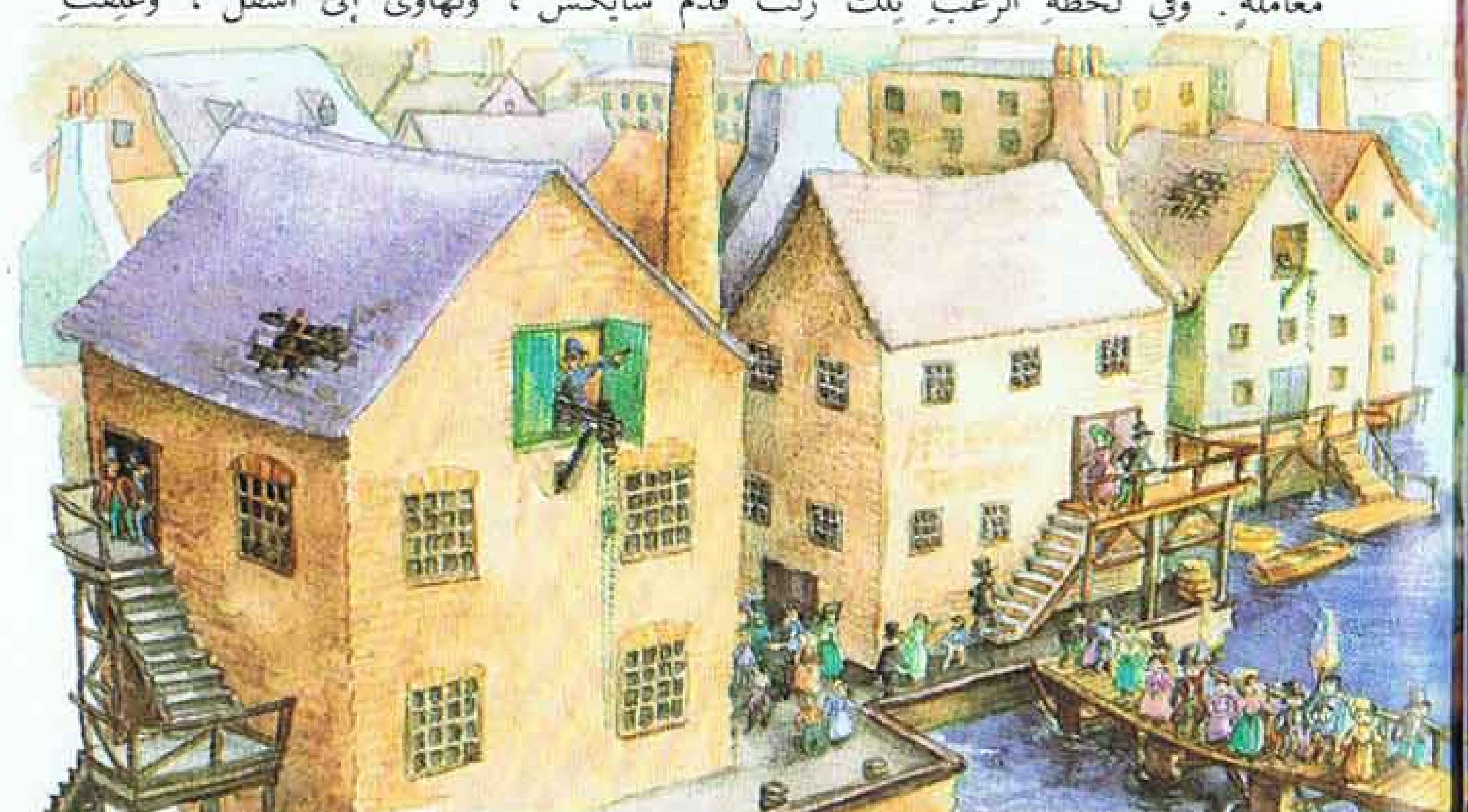


صاحَ سايكْس : «لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْكُمْ جَميعًا ، اِفْعَلوا ما تَشاؤونَ. فلا يَزالُ بِإمْكاني خِداعُكُمْ والتَّخَلُّصُ مِنْكُمْ . »

كانَ الرِّجالُ في هٰذِهِ الأَثْناءِ يَرْفَعونَ السَّلالِمَ . وظَهَرَ حَوْلَ البَيْتِ رِجالُ شُرْطَةٍ مُسَلَّحونَ بِالمُسَدَّساتِ والبَنادِقِ. أَخيرًا وَقَعَ بِل سايكْس في المِصْيَدَةِ !

لٰكِنَّ سايكس كانَ لا يَزالُ يَحْسَبُ أَنَّ أَمامَهُ فُرْصَةً لِلهَرَبِ. جاءَ بِحَبْلٍ طَويلٍ وأَسْرَعَ إلى غُرْفَةٍ خَلْفِيَّةٍ تُطِلُّ عَلى الأَرْضِ المُوْحِلَةِ الَّتي كانَ المَدُّ يَتَراجَعُ عَنْها في ذٰلِكَ الوَقْتِ. ثُمَّ تَسَلَّقَ الجِدارَ المُتَداعِيَ ورَبَطَ الحَبْلَ إلى مِدْخَنَةٍ ، وأَعَدَّ مِنَ الطَّرَفِ السّائِبِ مِنَ الحَبْلِ أُنْشوطَةً يَرْبُطُها إلى خَصْرِهِ ويَسْتَعينُ بِها في الوُصولِ إلى الأَرْضِ. لٰكِنَّ الجُموعَ شاهَدَتْهُ وصاحَتْ صَيْحَةَ غَضَبٍ عارِمٍ.

أَذْهَلَتِ المُفاجَأَةُ سايكْس ، وبَدا عَلَيْهِ لِلَحْظَةٍ أَنَّهُ لا يَعْرِفُ ما يَفْعَلُ . ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَزَعًا وكَأَنَّما يُريدُ أَنْ يُخْفِيَ عَنْ وَجْهِهِ صورةَ شَبَحٍ . لَعَلَّ وَجْهَ نانْسي بَرَزَ إلَيْهِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ يُطارِدُهُ ، أَوْ لَعَلَّ ضَميرَهُ رأَى اتِّهامًا في عَيْنَيْ كَلْبِهِ المُخْلِصِ الَّذي كانَ في ذٰلِكَ الوَقْتِ يَنْظُرُ إلَيْهِ مِنْ وَراءِ المِدْخَنَةِ ، والَّذي كانَ لا يَزالُ يَلْحَقُ بِهِ رُغْمَ ما عاناهُ مِنْهُ مِنْ سوءِ مُعامَلَةٍ. وفي لَحْظَةِ الرُّعْبِ تِلْكَ زَلَّتْ قَدَمُ سايكْس ، وتَهاوى إلى أَسْفَلُ ، وعَلِقَتِ



الأُنْشوطَةُ ، أثْناءَ سُقوطِهِ الخاطِفِ ، في عُنُقِهِ . وهَوى عَشَرَةَ أمْتارٍ ، ثُمَّ حَدَثَتِ انْتِفاضَةٌ هائلَةٌ في الفَضاءِ ، وتَوَقَّفَ الجَسَدُ عَنِ السُّقوطِ ، ثُمَّ ارْتَعَشَتِ الأَطْرافُ لَحْظَةً ارْتِعاشًا تَشَنُّجِيًّا ، راحَ الجَسَدُ بَعْدَها ، وقَدْ فارَقَتْهُ الرُّوحُ ، يَتَأَرْجَحُ في الفَضاءِ تَأَرْجُحَ كيسٍ مِنْ حَطَبٍ . زَحَفَ الكَلْبُ الذّاهِلُ ، وهْوَ يَنْبَحُ نُباحًا أَليمًا باكِيًا ، إلى حافَةِ الجِدارِ ، وراحَ يَنْظُرُ إلى سَيِّدِهِ المُعَلَّقِ بَيْنَ الأَرْضِ والسَّماءِ ، ثُمَّ تَحفَّزَ اسْتِعْدادًا لِلْقَفْزِ ، ثُمَّ رَمى نَفْسَهُ في اتِّجاهِ سَيِّدِهِ رَمْيَةً مَسْعورَةً ، وحاوَلَ عَبَثًا التَّعَلُّقَ بِالجَسَدِ المُتَأَرْجِحِ ، لكِنَّهُ سَقَطَ إلى الأَرْضِ المُوحِلَةِ سَقْطَةً رَهيبَةً أَوْدَتْ بِحَياتِهِ .

قُدِّمَ فاغِن بَعْدَ ذلِكَ بِوَقْتٍ قَصيرٍ إلى المُحاكَمَةِ ، ووُجِدَ مُذْنِبًا ، وحُكِمَ عَلَيْهِ بِالمَوْتِ شَنْقًا .

قَضى العَجوزُ أيّامَهُ الأَخيرَةَ في زِنْزانَةِ المَحْكومِ عَلَيْهِمْ بِالإعْدامِ ، وكَأَنَّهُ حَيَوانٌ واقِعٌ في فَخٍّ . وكانَ عَقْلُهُ يَشْرُدُ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ ، ويَهْذي أَثْناءَ نَوْمِهِ المُتَقَطِّعِ هَذَيانًا مُضْطَرِبًا ، كَأَنْ يَقولَ :

«عَظيمٌ يا تْشارلي ! ضَرْبَةٌ مُوَفَّقَةٌ يا ثَعْلَبَة ! آهِ ، وأُولِفَر أَيْضًا – السَّيِّدُ المُهَذَّبُ الصَّغيرُ – لكِنَّ لَكَ مُسْتَقْبَلًا ، إنَّ لَكَ مُسْتَقْبَلاً .»

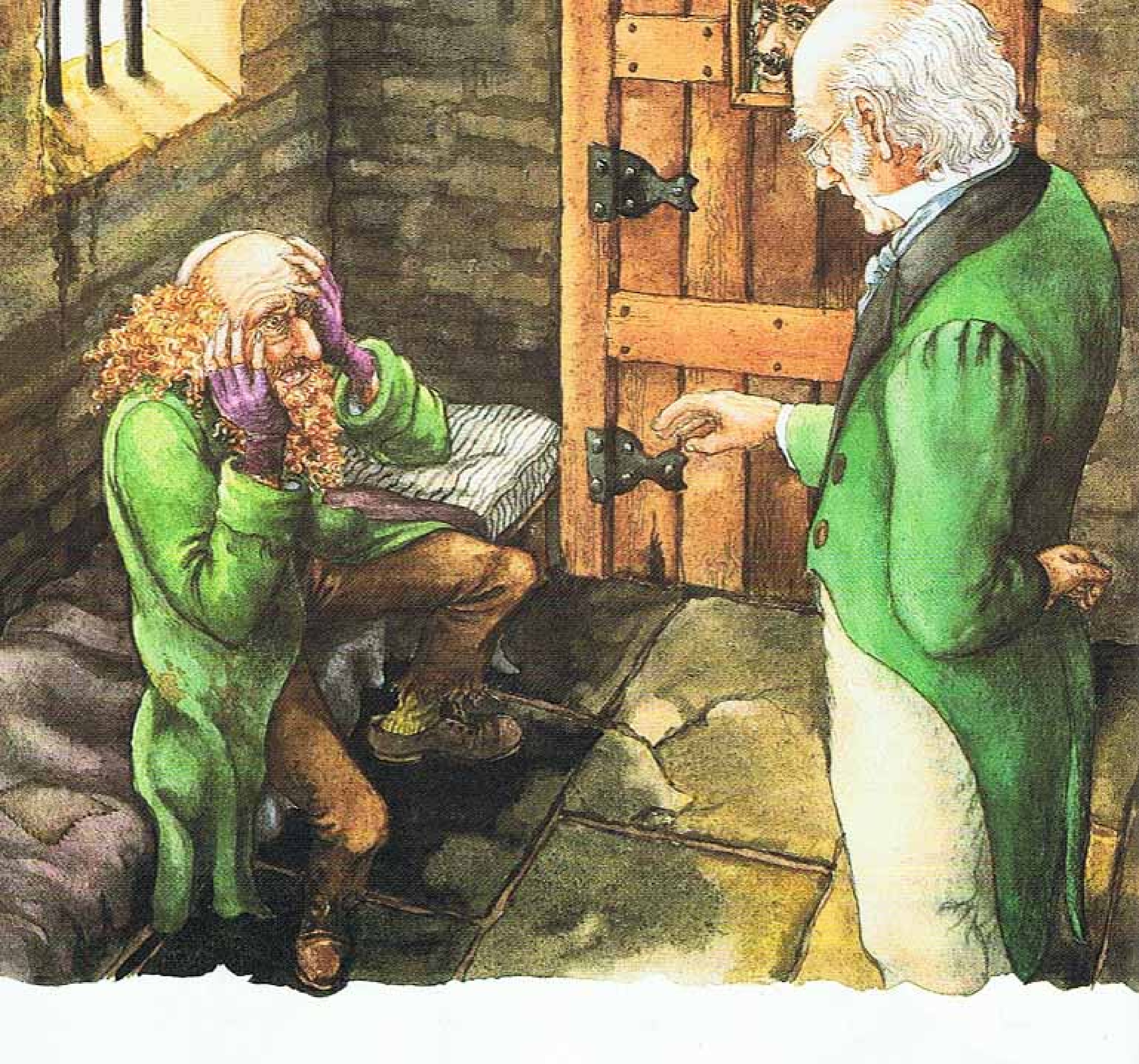
في الأُسْبوعِ الأَخيرِ مِنْ حَياةِ فاغِن أَتى السِّجْنَ مَنْ يَطْلُبُ رُؤْيَتَهُ . كانَ ذلِكَ السَّيِّدَ بْراونْلو .

طَلَبَ السَّجّانُ مِنَ السَّيِّدِ براونْلو أَنْ يَجْعَلَ زِيارَتَهُ قَصيرَةً ، وأَنْ يَدْخُلَ في مَوْضوعِهِ مَعَ السَّجينِ مُباشَرَةً قَبْلَ أَنْ يَقَعَ في نَوْبَةٍ مِنْ نَوْباتِ شُرودِ العَقْلِ .

فَتَحَ فاغِن عَيْنَيْهِ المُحْتَقِنَتَيْنِ بِالدَّمِ ونَظَرَ إلى زائِرِهِ .

قالَ السَّيِّدُ بْراونْلو بِصَوْتٍ هادِئٍ واضِحٍ : «إنَّ لَدَيْكَ ، يا فاغِن ، أَوْراقًا أَعْطاكَ إيّاها رَجُلٌ يُدْعى مونكْس .»

أَجابَ فاغِن بِصَوْتٍ خَبيثٍ : «لَيْسَ عِنْدي أَوْراقٌ .»



فقالَ السَّيِّدُ بْراونْلو بِصَوْتٍ واثِقٍ هادِئٍ: «أَسْتَحْلِفُكَ بِاللهِ أَلّا تُنْكِرَ. فَلَقَدْ ماتَ سايكْس، واعْتَرَفَ مونكْس بِكُلِّ شَيْءٍ. لَنْ تَكْسَبَ مِنْ كَذِبِكَ شَيْئًا. أَيْنَ هِيَ تِلْكَ الأَوْراقُ؟»

بَدا الاِسْتِسْلامُ عَلى وَجْهِ فاغِنْ، وتَمْتَمَ قائلاً: «الأَوْراقُ في كيسٍ قِنَّبٍ مُخَبَّأٍ في مِدْخَنَةِ الغُرْفَةِ العُلْيا الأَمامِيَّةِ.»

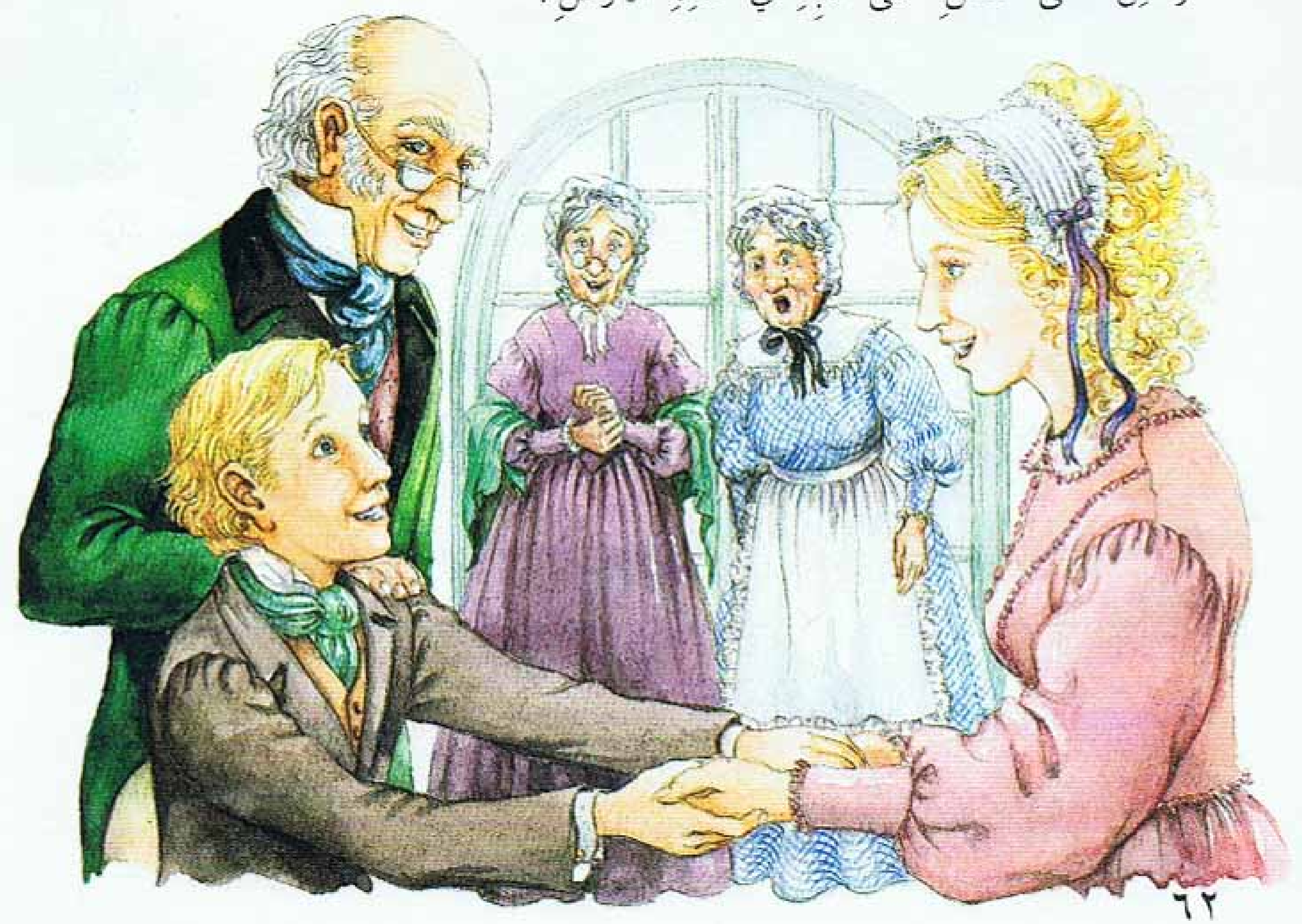
كانَ ذلِكَ كُلَّ ما أَرادَ السَّيِّدُ بْراونْلو سَماعَهُ. فَأَسْرَعَ في مُغادَرَةِ السِّجْنِ، وتَوَجَّهَ فَوْرًا إلى مَنْزِلِ فاغِنْ وعَثَرَ عَلى الأَوْراقِ.

الآنَ ، صارَ بِإمْكانِ أُولِڤَر أَنْ يُقيمَ الدَّليلَ القاطِعَ عَلى هُوِيَّتِهِ الحَقيقِيَّةِ ، كَما صارَ بِإمْكانِهِ أَنْ يَرِثَ الأَمْلاكَ الَّتي أَوْصى لَهُ بِها أَبوهُ .

أَمَّا مونكْس فإنَّهُ هَرَبَ إلى ما وَراءَ البِحارِ ، ولَمْ يَسْمَعْ بِهِ أَحَدٌ بَعْدَ ذٰلِكَ !

في اليَوْمِ التَّالي ، جَمَعَ السَّيِّدُ بْراونْلو أُولِڤَر وَروز والسَّيِّدَةَ مايْلي ، وكَشَفَ لَهُمْ أَسْرارَ الحِكايَةِ المُذْهِلَةِ ، وَسْطَ جَوٍّ عارِمٍ مِنَ الانْفِعالِ والتَّأَثُّرِ والمَحَبَّةِ . وراحَ الجَميعُ يَذْرِفونَ دُموعَ الفَرَحِ والابْتِهاجِ بِهٰذِهِ النِّهايَةِ السَّعيدَةِ . إنَّ المَحَبَّةَ العَميقَةَ الَّتي كانَتْ تَرْبُطُ بَيْنَ أُولِڤَر وَروز قَدِ ازْدادَتْ عُمْقًا بِانْكِشافِ الرَّابِطَةِ العائِلِيَّةِ بَيْنَهُما .

وكانَ مِنْ شِدَّةِ إعْجابِ السَّيِّدِ بْراونْلو بِأُولِڤَر ومَحَبَّتِهِ لَهُ أَنَّهُ اتَّخَذَهُ ابْنًا لَهُ بِالتَّبَنّي . واتَّخَذَ لَهُ بَيْتًا قَريبًا مِنْ مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ مايْلي يَعيشُ فيهِ هُوَ وأُولِڤَر والمُرَبِّيَةُ الحَنونُ السَّيِّدَةُ بِدْوِن . ومِنْ غَريبِ الصُّدَفِ أَنَّ الطَّبيبَ الفاضِلَ العَطوفَ لوزْبرن اشْتَرى كوخًا صَغيرًا مُجاوِرًا لِمَنْزِلِ السَّيِّدِ بْراونْلو لِيَقْضِيَ فيهِ شَيْخوخَتَهُ . وهٰكَذا دَرَجَ أُولِڤَر في دَرْبِ الرُّجولَةِ يُحيطُ بِهِ نَفَرٌ مِنْ أَغْلى النَّاسِ عَلى قَلْبِهِ في هٰذِهِ الأَرْضِ .





تْشارلْز دِكِنْز (١٨١٢ - ١٨٧٠)

وُلِدَ تْشارلْز دِكِنْز قُرْبَ بورتْسماوث في جَنوبِ إنكِلْترا. وحينَ بَلَغَ الثّانِيَةَ مِنْ عُمْرِهِ، انْتَقَلَتِ الأُسْرَةُ إلى لَنْدَن حَيْثُ تابَعَ والِدُهُ عَمَلَهُ كَمُوَظَّفٍ في القِطاعِ البَحْرِيِّ. واجَهَتِ الأُسْرَةَ هُنا صُعوباتٌ إذْ زُجَّ بالأَبِ في السِّجْنِ لأَنَّهُ أَخْفَقَ في سِدادِ دَيْنٍ. فكانَ على الفَتى أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنِ التَّعْليمِ الَّذي كانَ يُحَصِّلُهُ. ووَجَدَ نَفْسَهُ مُكْرَهًا على أَنْ يَلْتَمِسَ عَمَلًا في مَخْزَنٍ لِدِهانِ الأَحْذِيَةِ لِيُبْعِدَ الجوعَ عَنْ أُسْرَتِهِ. وأُطْلِقَ سَراحُ الأَبِ حينَ بَلَغَ تْشارلْز الثانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ، فعادَ الفَتى إلى تَحْصيلِ العِلْمِ لِمُدَّةِ سَنَتَيْنِ. كانَ ذَكِيًّا سَريعَ التَّعَلُّمِ، لكِنَّهُ تَرَكَ الدِّراسَةَ لِيَعْمَلَ كاتِبًا في مَكْتَبِ أَحَدِ المُحامينَ. وقَدْ حَصَّلَ في مَكْتَبِ المُحامي مَعْرِفَةً عامَّةً بِأَساليبِ المُحامينَ وبالنِّظامِ القَضائِيِّ الإنْكليزِيِّ، وهِيَ المَعْرِفَةُ الَّتي أَفادَ مِنْها فائِدَةً عَظيمَةً في العَديدِ مِنْ رِواياتِهِ. وعَمِلَ في هٰذا الوَقْتِ جادًّا لِيُصْبِحَ مُراسِلًا صَحافِيًّا في البَرْلَمانِ. لكِنَّهُ سُرْعانَ ما تَخَلّى عَنْ هٰذا العَمَلِ، وراحَ يَذْرَعُ البِلادَ طولًا وعَرْضًا لِيَكْتُبَ التَّقاريرَ عَنْ خُطَبِ قادَةِ السِّياسَةِ.

لَقَدْ كانَ لِهٰذِهِ الخِبْراتِ المُخْتَلِفَةِ، ولِقُوَّةِ مُلاحَظَتِهِ الحادَّةِ، أَثَرٌ عَميقٌ في تَوْجيهِ هٰذا الأَديبِ إلى وَصْفِ النّاسِ والأَماكِنِ وَصْفًا واقِعِيًّا آسِرًا. ونَشَرَ في العامِ ١٩٣٦، وكانَ لا يَزالُ في الرّابِعَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ، الحَلْقَةَ الأُولى مِنْ كِتابِهِ العَظيمِ «أَوْراقُ بِكْوِك» (Pickwick Papers) فنالَ نَجاحًا فَوْرِيًّا. وكَرَّسَ أَكْثَرَ وَقْتِهِ، مُذْ ذاكَ، لِكِتابَةِ رِواياتِهِ

المَشْهورَةِ. كَتَبَ في السَّنواتِ السِّتِّ التّالِيَةِ: «أوليفَر تْوِسْت» (Oliver Twist) ، «نِكْلَس نِكِلْبي» (Nicholas Nickleby) ، «حـانوتُ التُّحَفِ العَتيقُ» (The Old Curiosity Shop) ، و «بارنبي رَدْج» (Barnaby Rudge)، ثُمَّ كَتَبَ بَعْدَ ذلِكَ: «تَرْنيمَة ميلادِيَّة» (A Christmas Carol) ، «ديڤِد كُبِرْفيلْد» (David Copperfield) ، «البَيْت الموحِش» (Bleak House) ، «الأَيّام الصَّعْبَة» (Hard Times) و «دورِت الصَّغيرة» (Little Dorritt) . أَخيرًا أَتَمَّ بِحُلولِ عامِ ١٨٥٩ كِتابَةَ «قِصَّة مَدينَتَيْن» (A Tale of Two Cities) ، «الآمال الكِبار» (Great Expectations) و «صديقُنا المُشْتَرَك» (Our Mutual Friend) . وماتَ في العامِ ١٨٧٠.

إنَّ لِرواياتِ تشارلز دِكِنز هَدَفًا اجْتِماعِيًّا وأَخْلاقِيًّا يُضافُ إلى ما لَها مِنْ قيمةٍ تَرْفيهِيَّةٍ وجَمالِيَّةٍ عالِيَةٍ. فلَقَدْ كانَ مُصْلِحًا عَظيمًا وساعِيًا نَشيطًا في خِدْمَةِ الإنْسانِيَّةِ. وكانَ فَوْقَ ذلِكَ كُلِّهِ مُناضِلًا شَرِسًا ضِدَّ الفَقْرِ وقانونِ العُقوباتِ الجائِرِ ونِظامِ السُّجونِ الفاسِدِ الظّالِمِ، وضِدَّ ما كانَ يُعانيهِ الأَطْفالُ مِنْ قَهْرٍ وإهْمالٍ، والنِّفاقِ المُعَشِّشِ في أَساليبِ التَّعْليمِ وتَخَلُّفِ تِلْكَ الأَساليبِ. ولا شَكَّ أَنَّ أَعْمالَهُ هَزَّتْ ضَميرَ الأُمَّةِ، وكانَ لَها دَوْرٌ كَبيرٌ في العَمَلِ عَلى تَحْسينِ أَوْضاعِ الفُقَراءِ والتّاعِسينَ. إنَّ رِوايَةَ «أوليفَر تْوِسْت» مَثَلٌ عَلى الهَدَفِ الأَخْلاقِيِّ الَّذي كانَ المُؤَلِّفُ يَسْعى إلَيْهِ في كِتاباتِهِ. لكِنْ إذا تَجاوَزْنا الهَدَفَ الأَخْلاقِيَّ، فإنَّ لِهذِهِ الرِّوايَةِ الآسِرَةِ الفَريدَةِ، مِنْ حَيْثُ هِيَ عَمَلٌ فَنِّيٌّ، قيمةً أَدَبِيَّةً عالِيَةً، تُعْطي شاهِدًا مُبَكِّرًا عَلى أَنَّنا حينَ نَقْرأُ لِهذا الأَديبِ نَكونُ في حَضْرَةِ واحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ الرِّوائِيّينَ الَّذينَ كَتَبوا بِاللُّغَةِ الإنْكليزِيَّةِ.

كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتَين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير



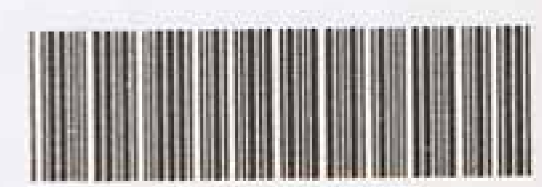
كتب الفراشة

القِصص العالميّة ٢. أوليفر تويسْت

اِخْتارَت **مكتبة لبنان ناشرون** أَرْوَعَ القِصص العالَمِيّة ، ونَقَلَتها إلى العَرَبيّة مُبسَّطة ، مُراعِيَة الأَمانَة في النَّقل والمُحافَظة على جَزالة الأُسْلوب العَرَبيّ وبَلاغته ، مَع تَشكيل كامِل وضَبْط دَقيق . وقد أَشْرَفَ عَلَى هٰذه السِّلسلة خُبَراء دائِرَتي النَّشْر والَمعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتّى نُوفِّر للقارئ العربيّ إنْتاجًا فكريًّا مُتفوِّقًا مَظْهرًا ومَضْمونًا .



مَكتَبة لبنَان ناشِرون



Ø1C196802